عبر زجاج الروح

عز سلطان

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

الكتاب : عبر زجاج الروح

الكاتبة : عز سلطان

تدقيق لغوي : احمد محمد عبد الستار , ايمان سلامة

تصميم الغلاف : عماد رشدي

رقم ايداع: 21524

ترقيم دولي: 978-977-85439-4-0

دار سنون للنشر والتوزيع

الزقازيق - الشرقية - مصر

٠١٠١١٤٦٤٠٣٧

sonon.pub@gmail,com

عبر زجاج الروح

عز سلطان

إهداء

إلي الغائبون
من أحسنوا إلينا و لم يمهلهم الوقت لمساندتنا أكثر
و إلي من يستحقون أن يقال لهم .. دمت خير صديق
إهداء إلي أبي و أمي و أختي

الزيارة الأولى

لم تكن صدفة، ولكنها عشوائية محكمة

(أمينة)

أصابها الملل والاستياء، فأرادت الهروب لو ليوم واحد لتصنع شيئا جديدا يسعدها، وإن كانت سعادة مؤقتة.

تذكرتُ حين كنت صغيرة، فصحبتني أمي إلى المشفى لزيارة قريبها المريض، ذهبت معها إلى إحدى المشافي الحكومية. كانت المرة الأولى لدخولي مشفى. . طفلة صغيرة تقتحم عالم المرضى، والأطباء، وبعض الأشجار التي تساعد على خلق قصص خيالية. تركت أمي مع قريبها، واتجهت لعنبر مجاور لعنبر قريب أمي المريض. كانت هناك سيدة مسنة يظهر عليها الحزن، وانشغال البال. جلست بجوارها، سألتها عن سبب حزنها فأجابتني. بأن أولادها تأخروا عن ميعاد الزيارة اليوم، فتملك منها القلق خوفًا على أبنائها. حدثتها في مواضيع أخرى لا أذكرها. مرت أعوام طويلة على هذا اللقاء العابر، كل ما أذكرهَ. ذاك الشعور بالسعادة الذي غمرني حين تركت المسنة لأذهب لأمي ثم عدت إليها مرة أخرى فوجدتها تجلس على سريرها، وحولها أشخاص من الواضح أنهم أبنائها. كانت سعيدة، ولم تشعر بوجودي. شعرت بالسعادة لسعادتها.

قادني الفقد إلى السعادة لزيارة تلك المشفى. لعلي بزيارة عابرة أُسعد أحد المرضى فأسعد أنا الأخرى.

أخرجها من شرودها سائق التاكسي قائلا:

-هي دي الستشفى؟

هزت رأسها بنعم، وأخرجت النقود من حقيبتها، دفعت أجرة السيارة،

ثم هبطت لتدخل المشفى. لم تكن المشفى كالسابق المباني كما هي مع اختلاف ألوان الجدران، أقتلعوا العديد من الأشجار تاركين بعض العشب، وأشجار قليلة. ما إن دبت قدمها في المبنى، لاحظت اختلاف طريقة تعامل الأطباء مع المرضى. اختلف كل شيء من الخارج، وفي الداخل أصبح أسوأ.

(. . . . .)

منذ فترة وأنا أعيش حالة من الهدوء التام. لا تؤرقني ذكريات، ولا يشغلني حاضر، أو تخطيط للمستقبل، وكأنني أعيش أضغاث أحلام، وبدأ عقلي في سرد ذكريات حاولت جاهدًا الهروب منها.

تذكرت إحدى الأعياد في صغري. لم يكن عيدي الأسوأ، ولكنه حمل إليّ ما لم تحمله الأعياد الأخرى، تأزمت الأوضاع المادية. فتأخر أبي في شراء ملابس العيد لي، فصحبني قبيل العيد بيوم لشراء ثياب العيد. اشترى لي أبي بذلة الضابط، كانت موضة عصرها، فتجد في المناسبات كل الأطفال ضباط صغار تملؤهم براءة في زي رسمي، واشترى لي أيضًا حذاء يضيء ألوانا من الكعب، طالما حلمت بهذا الحذاء. عدت في يد أبي سعيدا. فثياب العيد ستنعم بالنوم بجواري الليلة، كنت سعيدا كمن حقق كل أحلامه، ولكن طفلا مشردا صغيرا بثياب بالية كان جالسا على أحد الأرصفة. نظر لي فابتسم لي، وابتسمت له، لعل أحلامه يومًا تشابهت مع حلمي بالبذلة، والحذاء. اختلفت بسمته عن بسمتي كثيرًا، كانت المرة الأولى لأرى تلك الابتسامة. حزن شديد تحول إلى شيء آخر. شغلتني بسمته طويلًا. كم تمنيت لو أني عدت، وجلست بجواره. لعلني أضحكته. أو حدثته في أي موضوع ممل. أو كنت قصصت عليه إحدى النكات السيئة فيضحك من سوئها، ولكني ذهبت للمنزل بثيابي الجديدة تاركًا عقلي عند ذاك الطفل، وابتسامته. لم أكن أدري حينها أن الأيام ستجري سريعًا لتشبه بسمتي بسمته. حزن شديد تحول إلى شيء آخر.

(أمينة)

تفقدت المشفى. شَاهدت كل المرضى، مرت بكل العنابر، لم تجرِ حديثًا مع أحد، أشبعتها حالة البؤس الشديد في عيون المرضى، فلم تتجرأ على محادثتهم. شعرت كأن محاولة التخفيف عن أحد هؤلا البائسين. هي محاولة مستحيلة. أذلهم الحزن، والمرض فلن تغير حالتهم كلمات أمينة البائسة هي الأخرى، لكن هو من جعلها تتوقف. رأت من زجاج العناية شاب نائم في السرير أمامها. لا يحرك ساكنا موصولة بجسده العليل العديد من الأسلاك الموصولة بالأجهزة الطبية، على أنفه جهاز تنفس، وعلى صدره أسلاك من جهاز قياس نبض القلب، ما الذي يؤدي بشاب في هذا العمر أن يرفض الحياة إلى هذا الحد، فتمنعه عن الموت مجرد أسلاك، وبضع أجهزة.
ما الذي جاء به إلى هذا المكان. مرت الساعات سريعًا، لم تنتبه لألم قدميها من الوقوف لساعات، وودعته. أرسلت إليه السلام بخاطرها. وتركته لتعود إلى المنزل. فتحت آثار الباب لأمينة.
-ادخلي بسرعة. أنا قولت لأبوكي إنك رجعتي من الجامعة، ونمتي ادخلي غيري هدومك بسرعة.
قالتها بصوت خافت خوفًا من أن يعرف أبوها.
هربت أمينة لغرفتها، بدلت ثيابها سريعًا، فجاءتها طرقات الباب التي تعرفها جيدًا لتعلن حالة الذعر بداخلها.

(. . . . .)

حاولت أن أتناسى تلك الفترة، وذاك الشعور بتأنيب الضمير الذي ينتابني كلما تذكرت هذة التفاصيل، لكني أذكر ابتسامتها الساحرة، وأذكر الدموع التي سقطت من أجلي من عين الأخرى. كان العام الثاني لدراستي الجامعية، رأيت فتاة تقف على مسافة ليست بالقريبة مني، لم نرتطم كالأفلام، وتتوقف عقارب الساعة، كل ما حدث أنها كانت تضحك كفتاة خُبّرت عن أنوثتها اليوم. فتاة بابتسامة ساحرة تجذبك لعالمها ما إن تقع عليها عيناك. فكانت أجمل في زيها الشتوي. وقبعتها المصنوعة من الصوف، بخصلات شعر متطايرة، كانت لوحة من جمال، لا يستطيع رسامو الكون تحديد تفاصيلها على لوحة. مرت من أمامي، فخفق قلبي. مر شهران، بحثت عنها بعيني في وجوه كل من تقع عليها عيني، ولم أجدها، وكأنها عطر تفوح رائحته لثوانٍ، ثم تتبخر. فتمر الأيام تباعًا خالية إلا من حزن. على غياب هذا العطر.

بدأت حكاية جديدة، حين أوقفتني زميلتي آية. أعطتني دفتر محاضراتها. دون أن أطلب، ثم تمشت بعيدًا عني خطوات، وعادت لي مَرة أخرى، سألتني عن رقم هاتفي، اندهشت من طلبها، ولكني أطلعتها على الرقم، فكل أبناء آدم لا يرفضون آن تطلب أي فتاة في الكون رقم هاتفهم، وأنا من أبناء آدم أيضًا. مرت أيام قليلة لا أذكر عددها، لأنتبه لصوت دقات عقارب الساعة تعلن أن الساعة أصبحت العاشرة مساء. ليرن هاتفي برقم غريب، فأجبت.

- ألو.
- ازيك؟ أنا آية.
- الحمدلله. ازيك انتي؟
- تمام.
صمتت قليلًا فحاولت أن أكمل هذا الحديث حتى لا ينتابها الشعور بالحرج:
-أنا متشكر جدًا على كشكول محاضراتك فادني جدًا.
-الشكر لله. انت تؤمر.
-الأمر لله.
ضحكت ثم صمتت، ولكني لم أنهِ المكالمة. لعلها أرادت إخباري شيئا بخصوص مشاكلها مع زوج أمها، لكنها صمتت طويلًا. ثم قالت:
- أنا بحبك من سنة أولى. مش هعرف أخبي أكتر من كدا.
قالت جملتها ثم صمتت، فأثقلني عناء إخبارها الحقيقة لأسمع صوتا يشبه أنين البكاء، فأجبت لمجرد عدم إحزانها، لم أكن أدري أن أسباب شقائي ستكمن وراء تلك الإجابة.
- وأنا كمان.
لم تنطق اكتفت بضحكة تنم عن سعادة. ثم أنهت المكالمة. وفي اليوم التالي اتصلت لتطمئن عليّ، ثم أعادت الكرة في اليوم الثالث، والرابع. ثم مر أسبوعان، وهي تهتم بي، فألزمني اهتمامها بي أن أعاملها باهتمام أيضًا.
جاهدت نفسي لأمتلك الجرأة لأخبرها بكل شيء.
- آية. انتي أحسن بنت قابلتها في حياتي. طيبة بتهتمي باللي حواليكي. بس. . أنا مش قادر أحبك مش لعيب فيكي. أنا مستاهلكيش.
تمرنت مرارًا لأخبرها بتلك الكلمات، ليأتني صوتها باكيا. أخبرتني أنها لن

تستطيع التحمل أكثر، فزوج أمها لا ينفك فرصة ليخبرها أنه هو من يعولها هي، وأمها، وأنه يتوجب عليها شكره دائمًا فلولا وجوده لكانت الآن تشحذ بإحدى إشارات المرور. لكن ما حدث اليوم هو الأسوأ إلى الآن. عايرها بموت أبيها. قال إنه إذا كان أبوها رجلًا حقًا ما كان ليتركها هي، وأمها بحاجة لمن يعولهم. كل ما استطاعت فعله، هي وأمها أنهم أمتنعوا عن تناول الطعام، وهي تعلم جيدا أن قريبًا سيقرصهم الجوع. فيضطرون لتناول الطعام، وتذهب كرامة أبيها إلى الجوع، والحاجة. قالت تلك الكلمات ثم بكت إلى أن أحست من صوتها أن أنفاسها قد أنقطعت. هدأتها. ولم أستطع فعل أكثر من مجرد تقويتها ببضع كلمات، ثم انقضت تلك الليلة.

وانتهى العام الدراسي سريعًا. لأنعم بزيارة الإسكندرية صيفًا. فأجدها تجلس أمامي. فخفق قلبي ثانيةً.

(أمينة)

كان أبوها الطارق. طريقته في طرق الأبواب المغلقة لا تختلف كثيرًا عن طرق رجال الشرطة. فيبث الرعب في أوصال أمينة دون بذل مجهود يذكر. فتحت الباب خافت أن يكون عَلم أنها تأخرت في العودة للمنزل، ولكن حين فتحت الباب. كان السبب أتفه من أن يدور شَجار حوله. تراجعت أمينة إلى أبعد ركن في الغرفة خوفًا من غضب أبيها. فقال:

- انتي مخرجتيش للغدا ليه؟ مش قولت مية مرة لازم تبقى موجودة على الغدا. يلا علشان أمك عملت لك أكل، وبعد كدا ابقي كلي واعملي اللي يريحك.

لم تنبس أمينة بحرف نظرت له بذعر. وما إن غادر الغرفة حتى جلست تبكي. لم تكن المرة الأولى لصراخه، ولن تكون الأخيرة، ولكنها المرة الأولى التي يهتم بطعامها. قطع بكاءها صوت آثار:

- أمينة يلا حضرتلك الأكل، وحطيته قدام التلفزيون. يلا علشان تاكلي.

*****

خرجت أمينة من غرفتها فوجدت صينية الطعام موضوعة على الطاولة أمام الأريكة التي يجلس عليها أبيها. جلست أمينة، وأثناء تناول طعامها لاحظت شرود أبيها كان يقلب في محطات التلفاز دون هوادة، دون أن ينظر لما يعرض، فقط يتنقل بين المحطات. اندهشت من شرودة، حين قامت لتدخل الصينية المطبخ ثم تغسل يديها. نظرت لأبيها نظرة سريعة،

كان يظهر على ملامحه الحزن، لم تظهر تلك النظرة في عينيه منذ موت أخيها غير الشقيق. عادت إلى غرفتها. إلى ملجئها الآمن من قسوة العالم، ثم تذكرت ما جعل الحزن يظهر في عين أبيها. اليوم ذكرى وفاة أخيها غير الشقيق، فهي فتاة على رجلين. رجل من زوجة سبقت أمها، استطاعت أن تحصل على الطلاق من أبيها. يا لحظها السعيد! لقي أخي من أبي حتفه إثر حادثة، لم أكن عرفته من قبل، رأيته للمرة الأولى في حياتي. كان يشبه شاب العناية كثيرًا، لم أستطع رؤيته بصورة واضحة أيضًا بسبب كثرة الأجهزة المعلقة بجسده، ثم فارق الحياة في اليوم التالي لزيارتي له. أما أخي الشقيق. علي. قطع دابر دلاله منذ وفاة أخي غير الشقيق، تحول دلال أبي إلى تعنيف، عاقب أبي أخي على إهماله هو لابنه الذي تناساه. فتذكره حين توفي، ليعاقبنا نحن على تقصيره، وبعض مرور وقت ليس بطويل. كان يوما شديد البرودة حين بحثنا عن أخي فلم نجده، انتظرنا عودته يومين، لكنه لم يعد. كان عزاء أمي أنه أخذ ثيابه معه، فتأكدنا من أنه رحل بإرادته. بحث أبي عنه في كل مكان، ولكنه لم يجده. أما أمي فازدادت قلة حيلتها بعجز،وضعف جديد.

مر شهران من الانتظار المرير، ليدق جرس الهاتف الأرضي، فتجيب أمي ملهوفة. كان علي هو المتصل، أخبرها أنه سافر إلى أوروبا عن طريق الهجرة غير الشرعية. بكى طوال الاتصال، سمعت بكاءه، وأنا أقف بجوار أمي. أخبرها أنه قابل الموت كثيرًا. وأنه يرى في كل لحظة طيف زملائه في تلك السفرية، الذين لم يستطيعوا النجاة من الغرق، وأن من نجى منهم لم تغنهم نجاتهم عن سوء المعاملة من المسئولون عن هذا الجحيم المسمى سفر عن طريق البحر. ثم أخبرها أنه تعب في أول أيامه في إيطاليا ثم

استطاع الحصول على عمل في إحدى المطاعم، ويسعى للحصول على أوراق قانونية بأي طريقة كانت. انتهت المكالمة ببكاء أمي بحسرة اطمأنت، ولكنها ازدادت حزنًا على حزنها. تخشى ألا ترى أخي مرة أخرى، قد توافيها المنية قبل أن تسعد عيناها بلقائه مرة أخرى. أما أبي فعاقبنا أنا وأمي خير عقاب، على رحيل ذكوره.

منذ أربع سنوات لم أرَ أخي، لا أعرف كيف أصبح الآن. يحدثنا كل مدة طويلة. حين تذكرت حزن أبي انتابني شعور أليم بأنه إذا كنت أنا من هاجر أو توفي ما كانت تلك النظرة تطل من عينيه الآن. لعله يكون سعيدا.

*****

قاطع سيل الماضي اتصال من شخص غير متوقع.

اللقاء

يطلق القلب السهام دفعة. غير مبالٍ أي سهم سيصيب.

(. . . . .)

قررت السفر إلى الإسكندرية لزيارة عمي، رفضت أمي المجيء معي. قالت إنها لم تعد تستطيع السفر إلى الإسكندرية منذ رحيل أبي. فسافرت بمفردي.
جلست بجوار نافذة القطار الزجاجية، أحب النظر عبر الطرقات، والقطار يمر سريعًا، تذكرني سرعته بحياتنا. تمر هي الأخرى سريعًا بلا هوادة.
انطلق القطار لأنظر أمامي فأجدها هي. صاحبة الابتسامة الساحرة.
بحثت عنها عيناي لعام كامل. لأجدها في النهاية تجلس أمامي، تفصلني عنها ثلاثة مقاعد. لم أستطع رفع عيني عنها. كانت صامتة، ثم تحدثت في الهاتف. أثناء حديثها ابتسمت فكانت أجمل مما رأيتها بالسابق. شعرت بالغيرة، تمنيت ألا يكون من يحدثها بالهاتف حبيبها، ولا أي رجل آخر أيًا ما كانت العلاقة التي تجمعهم. عين سوداء براقة، وملامح رقيقة تربعها ملكة تستحق البحث والعناء ليس لعام بل لأعوام مديدة. راقبتها، فالتقت عيوننا مرة، ثم صرفت نظرها عني سريعًا، ولكني لم أكف عن التحديق بملكتي.

*****

بعد ساعتان من الحلم توقف القطار في محطة الإسكندرية، فغابت عن نظري في زحمة المغادرون للقطار. انتابني الحزن لضياعها مرة أخرى.
أسرعت، لكن دون جدوى. بحثت عنها كثيرًا، ولم أجدها.
لأجدها في النهاية أمام المحطة تستعد للرحيل بحقيبة ملابس ثقيلة. قررت اغتنام الفرصة التي منحها الله لي اقتربت منها. حين أصبحت خلفها تمامًا

لا يفصلني عنها سوى خطوات قليلة، تراقص قلبي من الفرحة، ثم انقبض خوفًا. كيف أحدثها؟ وماذا أقول؟ فلم أجدني سوى أقف أمامها، وباضطراب حبيب يتفوه للمرة الأولى إلى من أحبها في صمت. تشجعت ثم حدثتها:
-أزيك؟ أنا أعرفك. انتي في جامعة القاهرة؟
رمقتني مستهزئة، وتحركت من أمامي، فلحقتها، ومددت يدي لأصافحها:
-أنا أعرفك انتي متعرفنيش. شوفتك في كلية هندسة جامعة القاهرة قبل كدا، وميصحش أسيبك تشيلي الشنطة لوحدك، هشيلهالك. بس والله ما بعاكس.
ابتسمت لي، تركت لي الحقيبة، فحملتها، وهي اتجهت إلى إحدى السيارات الأجرة وأوقفتها، فلحقتها. ثم التفتت لي باستهزاء.
-الشنطة لو سمحت. متشكرة إنك شيلتهالي. عن إذنك.
وضعت لها الحقيبة في السيارة، ثم رَكبت السيارة، ورحلت ابتسمت ابتسامة أعرفها. بدت كمن تحتفل بالنصر، لكني لم أكن طرفا هينا في تلك المقابلة. تركت لها ما يجعلها تختارني أو تختار رفضي.

(أمينة)

- ألو.

جاءها صوت شاب. لعله أحد الشباب الفاشلين الذين تنتهي متعتهم بمضايقة الفتيات في الشارع، ثم عن طريق الهاتف ليلًا وكأن نساء الشرق خلقوا ليحتملوا كل رجل ضال في أي من شوارع المحروسة. فجاءها صوته مرة أخرى.

-أمينة. روحتي فين أنا أحمد.

- أحمد مين؟

-أحمد زميلك في الجامعة أنا آسف إني اتصلت أنا خدت رقمك من مروة صاحبتك.

- ما هي مروة كانت قايلالي إن لو حد عاوز رقمي من زمايلنا. فوافقت. بس كنت فاكرة إن بنات، مكنتش أعرف إن هيبقى في زمايل ولاد كمان.

أفضت بكلماتها كالمدفع بغضب، وسيطر عليها الخوف. ماذا إذا دخل أبوها؟ أو فتحت آثار الباب فجأة. قد لا تفهم الأمر. فتحدث بصوت خجل.

-أنا آسف أنا قلقت علشان مجيتيش الجامعة امبارح، فخوفت يكون في حاجة.

حاولت الحديث بهدوء، لكن ما إن نطقت ظهرت عصبيتها من جديد:

-لا. أنا كويسة، وهو الطبيعي إني لما أتعب، أو أغيب الجامعة كلها تعرف؟ لازم أتصل بالجامعة كلها أعرفها إني تعبانة؟

سيطر على صوته الحرج الشديد:
-- أنا آسف مقصدتش.
-- شكرًا على سؤالك يا أحمد. سلام.
أنهت أمينة الاتصال لم تنتظر منه إجابة أخرى. ربما شعر أحمد بالندم. لكن ما تلك الجرأة. ما هذا العنف، والتهكم من جانبها. كان من الممكن أن تنهي الاتصال بطريقة أفضل، لو أنها تحدثت بلين. خَشيت أن يكون اتصاله بداية علاقة مختلفة ستجمعهم، وهي لا تريد سوى إغلاق تلك الأبواب، لن تفتح قلبها ليمتلكه رجل ثم يعذبها. ستغلق قلبها، ويكفيها هي، لن تتحمل أعباء الآخرين.

(. . . . .)

انتهت زيارتي لعمي. لم تكن زيارة ممتعة، لم يسرقني البحر، ولا جمال المدينة من تفكيري بضحكتها. أهلك عقلي التفكير في ما إذا كانت ضيعت الورقة؟ أو لن تتصل بي أبدا.

عدت للقاهرة، بحثت عن عمل. لا يحدث جديد. تتصل آية كل ليلة لتخبرني عن تفاصيل حياتها، ومدى حبها لي، فأبادرها بردود ترضيها، ككاذب بارع. أخدعها في كل مرة يجمعنا حديث. أجيب على اتصالات آية متمنيا أن تكون المتصلة، هي الأخرى، وليست آية. ليرن هاتفي ليلًا برقم مجهول. لأسمع صوتها، تحدثت بانفعال، لكن كفاني أنها اتصلت:

-انت يا أستاذ انت مش معنى إنك شوفتني قبل كدا. إنك تسيب لي رقمك في شنطتي على ورقة. دي اسمها وقاحة. بأي حق تفتح شنطتي؟

-أنا آسف. اسمعيني بس. . .

- أنا مكنتش هتصل من الأساس. بس كل ما بشوف رقمك اللي حطيته في شنطتي، بحس إني عايزة أشتمك.

-ليكي حق. أنا سيبت الرقم علشان أسيبلك الحرية تكلميني لو عاوزة.

-بأي حق؟!

-بحق إني بحبك. متعرفينيش، ومعرفكيش بس بحبك. بقالي حوالي سنة، ومكنش ينفع أطلب رقمك، ولا ينفع أضيع الفرصة.

ساد الصمت، لم أسمع سوى صوت أنفاسها المتلاحقة، وبعد أقل من دقيقتين

من صمتها، أنهت هي الاتصال. كان ذلك كافيا لقلب عقلي، لم أفهم. أأحدثها؟ أم أنتظر؟ لكنها سمعتني ثم أغلقت الهاتف، فلم يحدد عقلي موقفها فانتظرتها مرة أخرى لتقرر هي.

(أمينة)

مر أسبوع لم تذهب للجامعة سوى يوم واحد، كان أحمد يقف على مسافة ليست بالبعيدة عنها. لم يرفع عينيه من عليها. أحست أنه يريد محادثتها، لم تعطيه فرصة ليقترب منها. حين وقفت بمفردها، وهو بمفرده أيضًا. اقترب بخطواته تجاهها. فأسرعت هي إلى مجموعة فتيات، ووقفت معهم تحججت بالسؤال عن موعد الامتحانات. . ففطن هو بدوره أنها لا تريد محادثته فابتعد. . فغادرت الجامعة، ولم تذهب إلى الجامعة مرة أخرى ذاك الأسبوع، ليس لأجل أحمد، ولكنها تذهب لمريض العناية.

*****

أمام زجاج العناية. راسلته بخاطرها.

- أتسمعني؟ أتراني روحك؟ لا أعلم لعلك تراني عبر زجاج روحك، أو لمحتني في زياراتي السابقة. أتمنى أن أحدثك.

لم تشعر بدموعها التي انسابت على وجنتيها. كل ما شغلها، كيف يشعر الآن؟ افترضت أنها مكانه. أكثر من أسبوع تداوم على زيارته، وهو بنفس الحال نائم كجنين في رحم أمه لا يحرك ذراعا، ولا ترمش عيناه. كم يملل هذا الثبات المستمر.

*****

اقتربت الممرضة صابرين من أمينة.
-انتي تعرفيه؟
فردت أمينة بحذر يخفي خوفها:
-اه. أنا قريبته؟ هو عامل إيه؟
-زي ما هو بقاله سبع شهور نايم النومة دي.
-إيه اللي جراله؟
حكت جبهتها تحاول التذكر:
-تقريبًا حادثة. اه صح كانت حادثة. انتحر بس مش فاكرة ازاي. بس إيه اللي فكركوا بيه دلوقتي؟
تلعثمت أمينة:
-ك. . كنا مسافرين. عن إذنك أصلي اتأخرت على البيت.
أسرعت أمينة للابتعاد عن أسئلة صابرين، ولكنها أرادت أن تعرف اسمه، وكيف حاول الانتحار؟ لكن كيف تسأل قريبة عن اسم قريبها المريض.
تركت أمينة المشفى، وفي طريقها للمنزل. تذكرت عدد المرات من طفولتها إلى الآن التي قررت فيها الانتحار ما بين أن تكتم أنفاسها لتترك جسدها للموت، وبعد ثوانٍ لا تحتمل أكثر، فتظفر بشهيق طويل لترتوي رئتيها، كما لو أنها لم يزرها الأكسجين قبلًا. كم مرة وضعت حبات الدواء بجوارها؟ من أجل ابتلاعها لتفارق الدنيا، حاولت كثيرا أن تقطع عروقها بأداة حادة، ولكنها لم تجرؤ. عجزت في كل مرة حاولت الانتحار. لعدم قدرتها على مفارقة الحياة باختيارها. فما السبب الذي حمله على تلك الجرأة، حتى يستعجل موته. نزلت من الأتوبيس الذي يبعد عن بيتها مسافة صغيرة، وقد قررت أن تعرف ما أودى بهذا المريض للانتحار.

(. . . . . .)

مر أسبوع آخر، وساحرتي لم تتصل يبدو أنها لن تسمح لي بالاقتراب منها،فرن هاتفي برقمها رقص قلبي على أنغام رنين الهاتف، كنت سجلتها على الهاتف باسم فتاتي الساحرة، فكان صوتها ساحر أيضا.

-ألو.

-كنت بتمنى تتصلي تاني.

-أنا عايزة أقابلك. هبعت لك العنوان، والميعاد في رسالة.

لم تنتظر مني جوابا أغلقت الخط لتنهي المكالمة، ويعلن قلبي الاحتفال، وينتظر الموعد، واللقاء الأول غير مبالٍ بأي شيء آخر. غمرتني السعادة ذلك اليوم كما لم أفرح من قبل. ليرن هاتفي ليعلن وصول الرسالة.

((كافيه. . وسط البلد، يوم الأربع الساعة ١٢ الضهر))

انتظرت الميعاد كالحالم بالحياة أن تدب في أوصالي من جديد. ارتديت أجمل ما بثيابي. ذهبت للكافيه. لتقع عيني عليها. كانت جالسة على طاولة في أحد الأركان اتسعت ابتسامتي، كطفل وقعت عيناه على لعبة جديدة فانبهر بها، فلم يرفع عينيه عن لعبته. للحب متعة ذاقها قلبي الآن. اقتربت من مجلسها، ثم جلست في هدوء، وابتسامتي تملأ وجهي. أما هي فكانت جامدة لا يعتلي وجهها أي تعبير. كانت تنظر في هدوء. فلم أستطع التنبؤ بحالتها. تمنيت أن يصدر عنها أي فعل، ولكنها صمتت، فصمت أنا أيضا متسائلًا. أأنتظرها أن تتحدث، لأرتب ما أنطق به على ما تقوله لكنها صمتت فتجمد كل شيء حولي. جاءنا النادل يسألنا ماذا نريد

من شراب أو طعام. فنظرت لها محاولا فتح مجال للحديث باستحياء:
-تشربي إيه؟
لم تنظر لي وجهت حديثها للنادل.
-ممكن أيس كريم.
-وأنا واحد قهوة مظبوط.
بادرت بفتح حوار فتلعثمت كأني تلميذ في اختبار.
-أنا. . أنا.
فقاطعتني هي:
-انت بتحبني فعلًا؟
هززت رأسي بنعم، وأفضى لساني بكلمات لم أعلم أني أستطيع النطق بها، وكأنها فرصتي الأخيرة. لأنال كأس الحب.
-ممكن تقولي بكدب أوعايز أتسلى بس شوفتك في الجامعة. كنتي بتضحكي، وفضلت أدور عليكي حوالي سنة. . ومشوفتكيش بس منسيتكيش، ويوم ما شفتك في القطر كنت بحمد ربنا على تدابيره، وإني قابلتك تاني. طيرت من الفرحة يوم ما قولتيلي نتقابل.
ثم أخذت شهيقا كمن عاد من معركة لأنطق بآخر كلماتي.
-لو دا ليه اسم عندك غير إنه حبَ، هيبقى عندي حب مش حاجة تانية.
جاء النادل وضع كوب الأيس كريم أمامها. فابتسمت كطفلة. فلم أفهم، هل تعشق النساء الشوكولاتة حقًا. لأنها تساعد على تنشيط الهرمون المسؤول عن الشعور بالسعادة. أم إنها خدعة كشاربي السجائر؟ لكن طريقتها في أمساك المعلقة، وتناول الأيس كريم في صمت باستمتاع لم يوضح سوى أنها تعشق الشوكولاتة كعشق رجل لحبيبته. احتسيت قهوتي في هدوء، وانتهت

هي من كوب الأيس كريم، ثم نظرت لي لدقائق، ثم وقفت، وأخرجت النقود من حقيبة يدها، ووضعت ثمن الأيس كريم بجوار الكوب الفارغ. فوقفت أيضا. فكرت في أن أمنعها من دفع حسابها، ولكن بأي حق أمنعها، أو أحاول الدفع بدلًا منها. من أكون سوى متطفل جديد.
فتركت حسابي على الطاولة، وأسرعت لألحقها كانت تتمشى بخطوات واسعة، وسريعة. خرجت من الكافيه فلحقتها، التفتت لي بثقة كأنها تعلم أني سأألحقها، قالت بهدوء، وابتسامة امرأة قد اكتشفت أنوثتها اليوم:
-اسمي مَريم.
نطقت اسمها ثم أكملت طريقها، لم أفهم ما حدث اليوم لكني أدرك أني أعشقها. عشقت مَريم، تملكتني رغبة بالوقوف في كل شوارع القاهرة، والنداء بأعلى صوتي قائلا: -أحبك يا مَريم- ولكن اتصالات آية قتلت رغبتي، لم أعد أريد خداعها أكثر، لكنها لم تمنحني فرصة. كانت تبكي لأنها قلقت، من عدم استطاعتها رؤيتي أو الوصول لأخباري لمدة يومين. فبكت من فرحتها لاطمئنانها عليّ، فلم أستطع النطق إلا بما يطمئنها، لكن رغبة جديدة ألحت عَلي أردت إنهاء تلك المكالمة سريعًا لأنتظر اتصال مَريم، أو أبادر أنا بالاتصال فتجيب فأنعم بصوتها الدافئ. شعرت بأن مَريم امتلكتني.
اه يا مَريم يا حبي، وعجزي، وكل نبضاتي يا مَريم. . .

كتبت تلك الرسالة على هاتفي، لكني لم أرسلها قررت أن أرسلها حين أتأكد من شعورها نحوي. فلم أكن أعلم أن سذاجتي لم تمكني من إدراك أن تلك الرسالة لن ترسل يومًا.

(. . . . .)

ذهبت إلى المشفى تلك المرة، وقد قَررت أن تحدثه عن طريق أرواحهم، لا تعلم هل سيصله ما أرادت إيصاله أم لا؟ لكنها تعرف أن هناك أناس يتواصلون بغير كلمات. فستحاول أن تكون منهم. لن تمنعها ألواح زجاج من إتمام تلك المناجاة، وإن كان هو أراد الابتعاد عن العالم البشري بإرادته فلن تكون بشرا ستكون جزءا من عالمه. . فحدثته:

-لا أعرف إذا كان ما أردت قوله سيصلك أم لا، لكني أدعى أمينة. منذ ما يقرب من شهر، وأنا أمر عليك. لا أريد أن أصبح غير مرغوبة بي من قَبلك. أعدك أني سأزورك باستمرار إلى اليوم الذي تفيق به، في ذلك اليوم من المحتمل ألا أزورك مرة أخرى. أنا لا أزورك شفقة، وإن كان البشر لا يفهمون المعنى الصحيح للشفقة. فمعناها الحب الشديد، وليس العطف والإذلال، ولكني بلغة البشر أشفق على نفسي بزيارتك. أنتظر أن تحيا من جديد لأحيا أيضًا

قالت ما أرادات البوح به في مناجاتها له، ثم فتحت عينيها نظرت إليه من خلال زجاج العناية ثم التفتت إلى اتجاه السلُم لكنها عادت إليه مرة أخرى.

ابتسمت، وبصوت خفيض يقرب إلى الوشوشة نطقت.

-هسميك ابن الناس. علشان انت أكيد ابن ناس. أنا همشي علشان متأخرش على البيت. هحكيلك عن بابا في المرات الجاية.

هكذا ودعته ثم اتجهت إلى منزلها. نامت في هدوء لتستيقظ في الصباح على صوت رنين الهاتف وجدت مروة هي المتصلة فأجابت:

-إيه يا مروة أنام شوية ألاقيكي متصلة عشرين مرة. في إيه مهم للدرجة دي؟!

-انتي كويسة؟

-اه الحمد لله.

-كويس طمنتيني أنا قلقت بقالك أسبوعين مجيتيش الجامعة، ولما فضلت أتصل ومرديتيش اتصلت على البيت، ومامتك اللي ردت. فقولتلها.

قاطعتها أمينة بغضب:

-يعني عرفتي ماما إني مبروحش الجامعة؟!

-اه كنت عايزة أطمن عليكي.

-ماشي. سلام. سلام!

-استني هقولك. أحمد عمال يسأل. . . .

-سلام يا مروة !

أنهت أمينة الاتصال قبل أن تنتظر سماع حديث مروة. خوفها من معرفة آثار أنها لم تداوم في الجامعة فاق فضولها لتستمع لقصة أحمد الذي ظهر من العدم ليربك حياتها أكثر. مرت ساعتان، وأمينة لا تعلم ماذا تفعل لم تجرؤ على فتح باب الغرفة لتخرج، تخشى أن تكون أمها أطلعت أبيها على ما قالته مروة، لكن ردة فعل آثار بثت الدهشة في عقل أمينة.

(. . . . . .)

لم أحاول الاتصال انتظرتها هي لتتصل، ولكني لم أستطع الانتظار طويلًا. اتصلت عليها في اليوم الذي تلا مقابلتنا لكنها لم تجب فخفت ألا يكون الرقم يخصها، ويتسبب اتصالي ببعض المشاكل لكني لم أستطع منع نفسي عن الاتصال، وفي المرة الثالثة أجابت.

-أنا معرفش اسمك.

-اسمي آسر.

ضحكت بعذوبة كنهر كادت تجف مياهه ثم ارتوى فارتويت أنا أيضًا.

-ماشي يا آسر. أنا بخير عارفة إنك اتصلت تسألني إيه إحساسي بيك. من الآخر انت مش فتى أحلام أوي بس. . سأمنحك فرصة.

نطقت الجملة الأخيرة باللغة العربية الفصحى، ثم علت ضحكاتها مرة أخرى، وأنهت الاتصال. أردت الحديث معها لأيام بدون انقطاع، ولكنها دائما ما تتركني جائعا لحديثها، ولكل ما يخص مريم.

*****

انقضى شهر آخر، ومَريم تحدثني وقتما أرادت. أمنحها الحرية لتفعل بي ما أرادت تنزهنا معًا أكثر من مرة، بدأت ترتاح لي أرى ذلك في نظرتها، باتت تحدثني عما تحب، وتكره. بت أحفظ تفاصيلها من الداخل كما أحفظ قسمات وجهها، أما آية فلم يختلف الوضع لم أستطع إخبارها أي شيء، ولا أذكر من حديثها سوى بعض القصص المتشابهة فحياتها ثابتة كأنها شريط يعاد كل ليلة. لم تكن أبدا آية السبب في إهمالي، لكن البعض يختار هامش

القصة مكانه، والبعض الآخر لا يختار سوى أدوار البطولة. فاختارت آية الهامش أما مَريم فتليق بها البطولة. لكن قد تختلف أماكن الشخصيات في الرواية، ومع كل تغيير لا بد من ضحية لإتمام القصة. فسواء أكنا أبطالا أو جزءا من هامش جميعنا بشر.

*****

يوم رأس السنة اختلف هذا العام، كان هذا اليوم بالنسبة لي مجرد رقم يعلن نهاية عام، وبداية آخر. لكن الوضع اختلف أحببت ذاك اليوم، وازداد حبي لمَريم أيضًا. كانت تشع جمالا وحيوية كانت تشبه الأزهار في فستان أحمر اللون زادها جمالا. أمضينا نصف النهار معًا، تنقلنا في الشوارع. رأيت القاهرة، وكأنني أرى جمالها من جديد، وقضينا النصف الآخر من النهار على شاطئ النيل. تأملت مَريم بدقة كانت صامتة تدعونني للخروج ثم تصمت، ظهر الحزن على وجهها لأول مرة فأحزنتني تلك النظرة. تحدثت في شئون الحياة جميعها لعلها تنطق، فبعد محاولات عدة نطقت أخيرًا.

-عارف النيل ليه مكان الحبيبة؟ علشان الميه اللي ماشية فيه. النيل شبه شرايين دمنا. الميه بتطهرنا حتى لو مليانين حقارة، وقرف.

-ومين فينا حقير، ومقرف؟ ولا انتي تقصدي غيرنا؟

تذكرت في تلك اللحظة ما أفعله بآية فما أفعله يدعى حقارة حقًا، وإن كنت لم أختر فمجرد أن أجعل قلبها يستنفذ ما يحتويه من حب لأجل شخص مثلي هو شيء أسوأ من الحقارة، والقرف. قطع لحظات جلد الذات كلمات مَريم.

-أنا اللي حقيرة، ومليانة قرف.

قالت كلماتها ثم ضحكت بكامل أنوثتها، فشعرت لوهلة أن فتاتي لا يجب

أن يراها غيري. فقاطعتها حتى أوقف ضحكاتها.
-بس انتي لا حقيرة، ولا مقرفة.
-بكرة تعرف.
ثم ضحكت بشدة، وعلا صوتها فتأكدت من أنها تمازحني.

*****

اتجهنا بعد ذلك إلى مقهى لقائنا الأول. كان المقهى مهيأ للاحتفال بالأنوار، وأشجار العيد وبابا نويل على باب المقهى اشتريت لمَريم قبعة بابا نويل، فازدادت وجنتيها حمرة فازداد جمالها. احتسينا مشروبنا، وتناولت مَريم الأيس كريم بالشوكولاتة حلوتها المفضلة ثم تركتني لتدخل دورة المياه. فتأخرت قليلًا فوقفت بعيدًا. شغلني لوهلة طفل صغير يضحك ما أجمل تلك الفترة يا ليتنا لا تزداد أعمارنا فنشيخ مبكرًا. صدمتني مَريم دون أن تراني في منحنى الممر الصغير. كدنا نتعانق كانت المرة الأولى التي ألمس يدها فيها لمستها دون قصد فاعترتني رجفة حين شعرت بأنفاسها. تمنيت لو أننا تعانقنا، ولكني كنت عاهدت الله إلا ألمسها إلا، وهي زوجتي. أخشى أن تعكر لمسة لا تحل لنا حبنا. انتهت الحفلة سريعًا أو الوقت الذي يسرع لينقضي حينما أقضيه برفقة مَريم. أوصلتها إلى الشارع الذي تتركني عنده. لم تسمح لي أن أوصلها إلى باب دارها أبدًا، أوقفتها، ونظرت في عينيها.
-انتي أحلى من حلاوة كل سنة جديدة.
ضحكت، وتحدثت بدلال:
- أكيد طبعًا.
كانت تمزح فقالت الحقيقة دون أن تدري.
-ينفع متضحكيش بصوت عالي قدام حد؟

-ينفع بس النهاردة عاوزة أضحك براحتي. ينفع؟
-ينفع.
ثم تمشت لخطوات فناديتها، التفتت تجاهي فضاع عن عقلي ما أردت إخبارها به:
-بلاش تبقي حلوة كدا على طول.
ابتسمت بدلالها المعهود ممزوج برقة، لا تستطيع أي امرأة أخرى إتقان هذا المزج. أدارت وجهها وذهبت لمنزلها. انتظرتها إلى أن وصلتني رسالة من مَريم تخبرني أنها وصلت منزلها. فعدت إلى منزلي. تغضبني تلك الفتاة لم أستطع السيطرة عليها دائمًا هي من تفعل ما يحلو لها، وأنا أستسلم تمر الأيام سريعًا. مر شهران آخران. ابتعدت قليلًا عن مَريم مرضت أمي، وكان حقها أن أرعاها، وكنت أحاول أيضًا البحث عن عمل لايتعارض مع دراستي.
لكني لم أجد عملًا، البحث عن عمل مناسب في القاهرة يشبه البحث عن المستحيل، لكني استطعت بعد فترة شاقة من البحث إيجاد عمل في ورشة نجارة لرجل طيب القلب يسمى عم أمين عملت لديه كمساعد له، لم أفكر أني طالب بالسنة الثالثة بكلية الهندسة، وعمل من هذا النوع لا يناسبني، لكن إن رفض عم أمين عملي عنده، فلن أستطيع سداد مصاريف الجامعة، ولقمة العيش. ساعدتني آية في الموازنة ما بين الدراسة والعمل كانت آية تنظم وقتي لأستطيع حضور محاضراتي، دون التقصير بعملي.
كان يومي منقسم ما بين جامعتي صباحًا، وبعد الظهيرة عملي في الورشة، أما المساء فخصصته للاهتمام بأمي، وساعة قبيل نومي أخصصها للمذاكرة، وسط انشغالي لم أستطع أن يمر يوم ولا أتحدث مع مَريم بالهاتف. كانت سبيلي الوحيد لينبض قلبي معلنًا أنه لازال على قيد الحياة، لم تكن مَريم

مجرد حبيبة بل من تملك هذا القلب، وتتحكم بمفتاحه، كانت آية تتصل بي مرارًا فلا أستطيع منحها سوى بضع دقائق. لا أجد سببا لتصرفي بتلك النذالة معها لمَ لا أصارحها لتنجو بقلبها من حب شخص مثلي! أعلم أني آثم بسرقة مشاعر تلك الفتاة، ولكني لم أعلم أن القدر سيعاقبني بهذا الشكل.

(أمينة)

دخلت آثار غرفة أمينة نظرت لها بالغضب، ثم أشارت لأمينة بحزم.

-تعالي ورايا قومي فزي.

لحقت أمينة آثار كانت ترتب الحجج، والأكاذيب التي ستختلقها لتبرر غيابها عن الجامعة في الفترة الماضية، اتجهت آثار إلى المطبخ، ولحقتها أمينة فأمرت آثار ابنتها بحمل أكواب الشاي الساخن، وتتبعها في صمت. ففعلت أمينة. دخلا الشرفة كانو قد أوشكا على نسيان منظر شرفة منزلهم.

جلست آثار فجلست أمينة أيضًا بعاطفة أم قالت آثار:

-انتي بتروحي فين يا أمينة؟

-بروح المستشفى.

تبدلت ملامح آثار إلى القلق:

-انتي تعبانة؟

-لا أنا بزور ست كبيرة تعبانة في المستشفى حالتها صعبة، وملهاش حد.

-وعرفتيها فين؟

-شوفتها صدفة في المستشفى كنت هناك مرة، وهي كانت تعبانة فبزورها من يومها.

-بس متخبيش عليا حاجة تانية، وبتتكلمي بصوت واطي ليه؟

-قومي يا ماما لبابا ييجي مش عايزة خناقات.

-أبوكي سافر أسبوع. علشان يزور علي أخوكي.

-يا بختها مَصر، ويا عيني على إيطاليا.

ضحكتا معًا، ثم شردت آثار فبدا علي ملامحها حنين أم خلع قلبها لابتعاد لم يكن بإرادتها.

-ابقي اتصلي بعلي لو كل شهر يا أمينة. اطمني على أخوكي.

-حاضر يا ماما.

طمأنت أمينة أمها ولكنها لن تتصل بعلي، لم يعد يشغلها أمره فلمَ لا يتصل هو؟ وهي لن تتصل.

مرت الساعات سريعًا خاضعة في سرعتها لجمال جلست السمر التي جمعت ما بين أم، وابنتها، ثم ناما معًا في نفس السرير تعانقا طوال الليل، كأنهما أذابا سنوات من الغربة تحت نفس السقف، وفي اليوم التالي أعدا فطورهم معا، ثم ذهبت أمينة إلى الجامعة. رتبت أن تذهب هي، ومروة لتناول الغداء معًا في إحدى المطاعم فاتصلت أمينة على آثار لتطلب منها السماح لها بالذهاب فوافقت آثار على طلبها. أغلقت أمينة الهاتف لتجده أمامها.

كان أحمد ينظر كحبيب أذابه عشقه، لم تجد سبب للتهرب منه، فقررت أن تواجه.

-ازيك يا أمينة؟

-تمام. في حاجة يا أحمد؟

-عايز أتكلم معاكي.

-كلام إيه؟

بدا عليه الارتباك ثم نطق كلماته:

-أنا معجب بيكي.

اتجهت أمينة للذهاب فوقف أمامها.

-لو سمحتي اسمعيني. أنا معجب بيكي، أنا عارف إن أخلاقك، وتربيتك

يمنعوكي من إنك تدخلي علاقة من النوع دا. بس أنا بحبك، ومقصدش أي حاجة غلط. إيه ردك؟

-أنا لازم أمشي لو سمحت. ابعد.

أفسح لها أحمد المجال، فتركت أمينة الجامعة، وذهبت إلى المشفى لم تستطع الذهاب إلى أي مكان آخر. استأذنت أمينة الممرضة صابرين بالسماح لها لدخول غرفة العناية، فوافقت صابرين على طلبها باعتبارها من عائلة المريض. دخلت أمينة غرفة العناية كانت تلك المرة الأولى لدخولها تلك الغرفة، لم تقترب من مريضها إلى هذا الحد سوى الآن، جلست على مقعد بجوار سرير المريض في هدوء رمقته، ورمقت جسده الممدد على السرير دون حراك لم تستطع رؤية معالم وجهه كاملة إلى الآن فعاملته كأنه يشعر بوجودها.

-ازيك؟ أنا أمينة.

قصت على مريضها كل شيء. انفعلت أثناء حديثها عاقبت نفسها على حب أحمد لها، لم تسمح يومًا لقلبها أن يعشق هربت دائمًا من هذا الضعف المدعو حبا. حصنت قلبها بأسوار عالية، وحب أحمد لها لا يثبت سوى أنها لم تستطع تحصين قلعتها جيدًا. باحت لمريضها بكل شيء، ثم ودعته لتذهب لمنزلها، كانت شاردة طوال الوقت لم تكن مرحة كليلة أمس. ظهر على وجهها الغضب فسألتها آثار عما أغضبها، ولكنها لم تجب. فلم تلح آثار بالسؤال تركتها لتهدأ.

وفي الصباح زارت أمينة مريضها كانت تحدثه، ثم تعود إلى منزلها اعتادت على حديثها مع ذاك المريض. أصبح مريض مجهول أقرب إنسان إلى قلبها تحدثه عن كل ما يخصها دون حرج، ليس من اليسير أن تجد من ينصت

إليك حتى وإن كان المستمع هو مريضها الغائب عن الحياة، فيكفي أنها تبوح إليه بما لم تبح به لغيره.

*****

مرت أيام سفر أبيها سريعًا عادت إلى منزلها بعد زيارة مريضها لن تستطيع زيارته في اليوم التالي بسبب عودة أبيها. فسيعود أبيها في رحلة اليوم التالي على متن الطائرة القادمة من إيطاليا الرابعة عصرًا، لم تكن مسرورة بعودته ألفت العيش مع أمها بمفردهم، ولو لمدة قصيرة. ليرن هاتفها من جديد برقم أحمد لم تجب. فماذا تخبره؟ فجاءتها رسالة هاتفية منه.

((أنا مستني ردك يا أمينة. ردي بأي إجابة، ارحميني، وقولي رأيك أيا كان))

إذا كانت أرادت أن تجيب حين اتصل، أو إن قلبها خفق بقوة حين أخبرها بإعجابه في الجامعة. أيعني هذا أنها تشعر بشيء تجاهه؟ ، ولِمَ تعتريها تلك المشاعر. لن تسمح لعقلها أن ينشغل بتلك التفاهات، دخلت آثار على أمينة غرفتها، كانت أمينة جالسة على السرير شاردة، فجلست آثار بجوار أمينة على حافة السرير فالتفتت أمينة إلى آثار.

-ماما. انتي عمرك حبيتي؟

-اه. حبيت مرة هو مكنش حب أوي بس حاجة شبة كدا.

-ازاي؟

اعتدلت أمينة في جلستها، والتفتت بكامل جسدها نحو آثار. سردت آثار لأمينة ما حدث منذ أكثر من سبعة وعشرين عامًا. كانت تسرد ما يبوح به فؤادها.

*****

كنت فتاة رقيقة خاضعة كباقي فتيات جيلي. أردت أن أثبت لعائلتي أني قوية أستطيع حماية نفسي جيدًا. فركبت القطار المنطلق من الإسماعيلية إلى القاهرة لألحق بعائلتي التي سبقتني بيوم، سافرنا لنستقر بالقاهرة، لم يكن إقناعهم بالسماح لي بالسفر بمفردي بالأمر الهين لكن الاختبارات النهائية بالمدرسة ساعدتني لإقناعهم باللحاق بهم بمفردي. لحقت القطار قبل انطلاقه مباشرة، وقفت على باب القطار أردت الشعور بمن سبقوني بالوقوف بهذا المكان، بدأ القطار في الانطلاق أسرع المسافرون لبلوغ القطار. لينطلق القطار، وأراه من بعيد شاب تظهر الرجولة في هيئته يجري مسرعا ليلحق بالقطار، لم أستطع رفع عيني عنه، تبادلنا النظرات شعرت في نظرته بأمان. لكنه لم يلحق القطار فاقه القطار سرعة، فوقف على المحطة يلهث بأنفاس متلاحقة ابتعد القطار إلى أن اختفى عن نظري. لتتبقى منه نظرته. ندمت على ركوبي مبكرًا، لو أني تأخرت في الركوب لاختلف قدري الآن.

نظرت أمينة بدهشة لآثار.

-حبيتي واحد شوفتيه بيجري لثواني. ازاي؟!

تنهدت آثار بحنين لاذع ثم أجابت:

-اه. حبيته، لو كنت أعرف يومها إني مش هحس بكدا تاني ناحية أي حد. كنت نطيت من القطر. لو هضمن ألاقيه مستني في المحطة كنت سافرتله.

ثم قالت بصوت خفيض يقترب إلى الهمس:

- كنت رجعت له حتى لو دلوقتي. بس مش هلاقيه. .

-وبابا يا ماما؟

-عجب أهلي فأقنعوني بيه كان أبوكي متجوز، ومطلق، ومراته خدت ابنه، ومعرفلهاش طريق. فباين صعب على أهلي يمكن شافوه مظلوم فقالوا

يجوزوني له. استنيت أحبه بس محصلش.
-أتجوز واحد أحبه، ولا اللي تختارهولي؟
-مش عارفة. الزمن اتغير، بس لسه الحب عيب، والمحترمة مبتحبش.
فمش عارفة. انتي، وحظك.
لم تعلم أمينة حينها أن سؤالها الأخير سيصبح محور حياتها.

*****

عاد أبوها من سفره، استقبلته آثار بالمطار. أما هي فلم تكن مسرورة بعودته.
فقط حنين ما حركها لترحب به حين يعود للمنزل، لكنها لم تفعل اكتفت بمراقبته من خلال فتحة صغيرة من باب غرفتها، دخل أبوها يحمل حقيبة ثيابه، وهدايا من علي لأمينة، وآثار. ترك أبوها الحقيبة، وجلس على إحدى المقاعد. ثم قال:
-أمينة فين؟
-تقريبا نامت. أصحيها؟
-سيبيها نايمة.
قالت بشوق
-علي عامل إيه؟ كويس؟
-راجل الواد علي. قلتله لو هيتجوز واحدة من هناك، يخلفلي رجالة يشيلوا اسمي. مبيجيش من خلفة البنات إلا الهم.
سمعت أمينة ما تفوه به أبوها، فأغلقت باب غرفتها، واستيقظت مبكرًا، وذهبت إلى الجامعة قبيل استيقاظه. ذهبت إلى الجامعة فوجدت أحمد أمامها. . .

(. . . . .)

اصطحبت آية إلى المقهى الذي طالما تقابلنا به أنا، ومريم أردت أن أرى طيفها فأتجرأ على إخبار آية الحقيقة، أردت إخبارها أني لم أحبها، لكن سعادتها أربكتني جعلت لساني لا يتجرأ على النطق. طلبت لها المثلجات لأني أعتقد أن ما تهواه مريم تهواه أي فتاة أخرى. تحاشيت النظر لعيني آية وقلت:

-في حاجة مهمة عاوز أقولهالك.

ابتسمت بخجل يبدو أنها تنتظر مني أن أغازلها، وأخبرها مقدار حبي لها.

-مش عارف أقول حاجة غير إني آسف.

نظرت لي باندهاش.

-في إيه يا آسر؟

-في إن. . . .

قبل أن أنطق رن هاتفي برقم أمي لم تكن تتصل بي إلا لأمر هام فأجبت لم يكن صوت أمي، كان صوت أمرأة غريبة.

-أنا أم محمد جارتكوا. أمك جت لها غيبوبة السكر، واحنا خدناها المستشفى!

سحبت آية من يدها، وأركبتها سيارة أجرة ثم أسرعت إلى المشفى. كانت أمي في غرفة العناية مرت ساعات من القلق، ورحل الجيران تباعًا، وبقيت بمفردي أوشكت دراستي على الانتهاء، ولن يكون أبي بجواري ذلك اليوم، ولن يساندني يوم زفافي، لن أستطيع خسارة أمي أيضا. تحسرت على عجزي،

لا أقدر على مساعدتها بشيء، إلى أن أخبرني الطبيب أن حالة أمي استقرت.

*****

صرح الأطبة لأمي بالخروج من المشفى، اهتممت برعاية أمي لأسبوعين متتاليين. حين عادت كالسابق، واستقرت صحتها. استطعت فتح هاتفي المغلق منذ دخول أمي المشفى لأجد مئة أو أربعا وعشرين مكالمة فائتة من آية، وخمسة اتصالات من مريم، ورسالة صوتية. فاستمعت لرسالتها.
(فينا من قلة أصل يا سي آسر، لو متصلتش بسرعة، هينتهي عرض الكلام بينا. . ابقا قول اللي عاوزه بس اتصل قولي ازيك. . سلام. . يا جدع. . .)
لا أفهم جرأة تلك الفتاة لا أستطيع مجاراتها. كل ما يصدر عنها غير متوقع، اتصلت عليها انتظرت رنين الهاتف بفارغ الصبر، فقلت ما إن أجابت:
-بحبك.
ضحكت في عذوبة وقالت:
-طاب قول ألو!
-انتي ازاي كدا يا بت انتي؟
-بت!! كنت فين؟
-هقولك لما أشوفك. أنا اتصلت علشان أقولك وحشتيني.
-مين قالك إني هوافق أشوفك.
نطقتها بدلال فأذابتني
-اللي جرب فراق غالي أول حد بيكلمه بعد غيبة دا أعز حد في حياته، وأنا والله بحبك.
--وأنا متأكدة إنك بتحبني. بس شكلك مشغول. روح للي واخدك، واتصل لما تفضى.

-استني!
-سلام يا سي آسر.
أردت إيقاظ أمي، وأخذها لمنزل مَريم الذي لم أعرف عنوانه بعد، لأتقدم للزواج منها، حينها فقط لن ينقصني شيء.

(آثار)

حديث الأمس أعاد آلام سبعة وعشرين عامًا في عشرة هذا الزوج، حَاولت أن تبحث عن سبب لتحمل كل تلك السنوات، فلم تجد إجابة، لا يوجد ما يثبت أن سنواتها لم تهدر هباءً مرات الود التي جمعتها بزوجها أقل من أن تستطيع تذكرها. عاملها جيدًا يوم أنجبت علي، لكن سرعان ما عاد إلى طبيعته السيئة، ويوم أنجبت أمينة أهملها لم ينظر لوليدته، ولم يحملها، ولا لمرة. لا يعاملها كزوجة إلا حين يطالب بحقوقه الشرعية، تشعر في كل مرة يقترب منها أنها مومس، بل حالها أسوأ من حال المومس. فالمومس يعاملها زبائنها جيدًا، أما هي فما إن ينتهي منها يدير ظهره لها، وكأنها حشرة نامت على هذا السرير عن طريق الخطأ. لم تعد لديها القدرة على محاولة التحسين، أو الجدال، ولا حتى الاستماع إلى شجاراته، بعد سبعة وعشرين عامًا في هذا المنزل أصبحت مستنزفة، يعاملها الجميع على أنها كل شيء إلا روح، وكأنها ناقصة من كل شيئ إلا جسد يتحرك. لم تثور، ولن تثور لم يعد يليق بها التمرد، مسحت دمعتها التي نزفتها عينيها، وخرجت من غرفتها كان زوجها انتهى من استحمامه، لا تريد الاستماع إلى أي من أحاديثه اختارت ألا تراه اعتبرته جزءا من فراغ الهواء. اتجهت إلى المطبخ لتحضر الغداء حتى لا يقرصه الجوع، فيختلق مشكلة جديدة. أثناء انهماكها في تقطيع البصل تبعها إلى المطبخ لامس بيديه كتفها فاعترتها رجفة. .

(أمينة)

وجدت أحمد أمامها، اتجهت إليه لتخبرها أنها لا تحبه، ولن تحبه يومًا، ولن تحب أي رجل آخر لكن جرأتها تلاشت حين أوشكت على الاقتراب من مكان وقوفه، فتوقفت، وهو يراقبها بعينيه، ثم أدارت وجهها، واتجهت لخارج الجامعة، وأخرجت هاتفها من حقيبتها، وأرسلت رسالة إلى أحمد.

((ربنا يرزقك ببنت ناس تصونك، وتسعدك. أما أنا فمعنديش مكان لا لحب، ولا لحاجة تانية. . .)).

تعلم أن كلماتها قاسية، ولكن يجب إنهاء هذه المهزلة دون ترك أي آمال لديه. ثم ذهبت إلى المشفى سمحت لها الممرضة صابرين بالدخول لمريضها جلست بجوار سريره حدثته كأنه يراها أويسمعها.

-ازيك يا ابن الناس انت عارف عني كل حاجة، بس معرفش عنك حاجة، أنا بعتت رسالة لأحمد قلتله فيها إني مبحبهوش أقولك أنا هسكت خالص عايزة أي حاجة توصلني منك. . اللي هيوصلني مش كلام أنا عارفة. ابعت لي أي حاجة فهمني اللي عاوزه. أنا مستنية.

أغمضت عينيها في صمت شديد تنتظر أن يصلها أي حديث منه. حافظت على إغلاق جفنيها لوقت ليس بالقصير، لكنها لم تستقبل شيئا فأشعلت قطعة موسيقية كلاسيكية كانت قد حملتها على هاتفها الذكي، فأغمضت عينيها مرة أخرى لتحاول إستقبال أي إشارة منه فتحت عينيها لتودعه قبل

الذهاب لمنزلها، لن تستطيع البقاء أكثر فانتابها شعور يدعوها للبقاء أكثر شعرت بالسعادة لذاك الشعور الذي انتابها.
علمت أنها ليست بالزائرة الثقيلة، فستحافظ على وعدها بزيارته دائمًا، لكن يتوجب عليها التوجه لمنزلها، لن تستطيع البقاء أكثر.

(. . . . . .)

أنهيت السنة الأخيرة من دراستي، لم يرهقني عم أمين في العمل، جعل مني شريكه لأجل شطارتي بالدمج ما بين دراستي، والنجارة، فاستطعت ابتكار أشكال جديدة للأبواب، والنوافذ، أحدثت تجديدا في الأشكال الخشبية.
استطعت التخرج من الجامعة بتقدير جيد، وآية التي ساعدتني حصلت أيضًا على تقدير جيد. أما مَريم فحصلت على تقدير مقبول، لا يليق بها التعليم والإجهاد يليق بها العيش اليسير لتنير ضحكتها الساحرة وجهها دائما. تفرغت للعمل ولمَريم أيضًا، لكن انتهاء الدراسة أبعدها عني لم تعد حرة كالسابق تحكمها المواعيد للعودة للمنزل، فلا نمضي معًا سوى وقت قليل. حدثتها مرة عن رغبتي في التقدم لخطبتها فشردت، ولم تجب، فقاطعت شرودها قائلًا:
-مالك سكتي ليه؟
-كل حاجة، وليها وقت.
منذ تلك الإجابة التي لم أفهم مقصدها جيدًا، وأنا أسعى للزواج من مَريم، وأول ما أردت الانتهاء منه هو إخبار آية كل شيء لأغلق تلك الصفحة، وأكمل حياتي مع مَريم، ولأجلها هي فحسب. فأخبرت آية أني انتظرها بإحدى المقاهي مر الوقت رتيبًا إلى أن جاءت طلبت لها عصير ليمون، وتركتها تحدثني عما تشاء أردتها أن تشعر بالراحة قبل أن أخبرها، لعل هذا يغفر لي حين تتذكرني فيما بعد. نظرت لها كجانٍ أوشك على ارتكاب جرمة انتابتني الجرأة فأخبرتها كل شيء أخبرتها أني لم أستطع حبها ثم ختمت

وقاحتي بجملة لطالما سمعتها باقي الفتيات من شباب العالم.
-انتي تستاهلي أحسن مني أنا والله ما أستاهلك.
وهي تستحق الأفضل حقًا، لم أخبرها شيئا عن مَريم، فلن يفيدها أن تعرف أني تركتها لأجل فتاة أخرى. لم يبدر عنها أي رد فعل ظلت صامتة، فلم أستطع البقاء أكثر فغادرت المقهى، ونظرت إليها من الخارج لم تلتفت ناحيتي، كانت جالسة كما هي تنظر أمامها في صمت سرعان ما تناسيت جرحي لها بعد تركها بوقت قصير. الآن أنا حر لا أخادع آية، ولا أخون مَريم. جل ما أردته هو إيجاد مَريم لأخبرها أني سأتزوجها، ولن أقبل أن تؤجل أو ترفض. اتصلت على رقم هاتفها كثيرًا فلم تجب. مرت عشرة أيام، وأنا أتصل، وهي لا تجيب. قلقت عليها قد يكون أصابها مكروه أو أن آية علمت بما بيننا فأخبرت مَريم، لكن آية مسالمة إلى أقصى الحدود. ازداد قلقي على حبيبتي التي لا تجيب لا أعرف لها عنوانا، فذهبت إلى الشارع التي طالما تركتني عنده، ولا تقبل بأن أخطو معها خطوة واحدة. أمضيت ساعات كل يوم وأنا أقف في ذاك الشارع أراقبه، حتى لا تخفو عن نظري النملة التي تتمشى. خشيت أن تمر دون أن أراها. فرأيتها من بعيد، يا ليتني لم أرها أو لو لمَ تقع عيني عليها لكان الوضع أفضل لكني رأيتها. .

(آثار)

مد يده، ولامس كتفيها ففزعت، وابتعدت عنه، فحاول الاقتراب منها مرة أخرى فأبعدته بيدها ثم أمسكت السكين، وأكملت تقطيع البصل، وهي تنظر له بخوف كل لحظة تخشى أن يحاول الاقتراب منها مرة أخرى، طرق بيده على الحائط بقوة، وبغضب شديد قائلًا:

-دي مبقتش عيشة.

غادر المطبخ، فتنفست الصعداء ثم أكملت تقطيع البصل، فاختلطت دمعات حزنها بدمعات تقطيع البصل. أكملت تحضير الطعام لتسمع أصوات طرق على باب الشقة ثم صوت فتح الباب، وغلقه، وصوت أمينة قد عادت، يبدو أنه قام بفتح الباب لأمينة. تمنت ألا تفعل أمينة ما يزيد من حدة غضب أبيها، لكن ما دعت الله ألا يحدث سيحدث.

(. . . . .)

رأيتها بصحبه رجل آخر، فتبعتهما من بعيد، خشيت أن يكون أخاها أو أحد أقاربها فأسبب لها المشاكل، فدخلا متجرا للملابس النسائية وقفت بالخارج أراقبهما من زجاج المتجر كانوا يتخيرون ملابس نسائية، فلم أجد تفسيرا يجعل فتاة تصطحب أخا أو قريبا ليشتري معها ملابس من هذا النوع. بعد أن انتهيا من الشراء خرجا من المتجر، وهو يحمل مجموعة من الأكياس، وركبا سيارة غالية من الواضح أنها سيارته، فأوقفت سيارة أجرة، وركبتها طالبت السائق باتباعهم، بعد مسافة نزلا من السيارة تحدثا لدقائق كانت تنظر له بنفس الابتسامة الساحرة، ثم عانقها بشوق رجل. أعلم ما يدور في عقل رجل حين يعانق امرأة بهذا الشكل تأكدت أنه لن يكون سوى عشيق.
تركت السيارة، واتجهت إليهم، وقبل أن ألحقهم كانا ركبا السيارة، وانطلقوا بها. إلى أن استطعت إيقاف سيارة أجرة كانت السيارة اختفت عن نظري، تاهت في زحام شوارع القاهرة. عدت إلى منزلي دخلت غرفتي كنت أحترق بالداخل، احترقت رجولتي بما رأيته منذ قليل. اتصلت عليها مرات كثيرة متتابعة، ولكنها لم تجب، وكيف تجيب الآن لعلها تنعم بصحبته. أسرعت إلى الشارع الذي كنت أوصلها إليه انتظرت أن تعود لن أبالي بأي شيء. انتظرتها إلى قبيل الفجر، ولم تمر فعدت إلى منزلي. فجرت غضبي في أمي حين سألتني عن سبب عودتي في تلك الساعة المتأخرة. أنهيت ثورتي لكن لم تنتهِ المحرقة.
كانت المكالمة الثالثة والعشرين بعد المائة لتجيب تلك المرة جاءني صوتها

هادئا.
-كل دي مكالمات يا آسر في إيه؟!
أجبت بجل ما بداخلي من غضب:
-مين اللي كان حاضنك في الشارع يا مَريم؟
صمتت لثوانٍ ثم أجابت بنفس الهدوء:
-دا خطيبي هنتجوز بعد أسبوع زي النهاردة.
لم أستمع باقي ما تفوهت به أغلقت الهاتف، وجلست في مكاني غير مدرك ما يحدث. أما سمعته حقيقة؟ لعلها خدعة. أكانت مَريم لعوبا إلى هذا الحد. خرجت مندفعا لأغادر المنزل، فأوقفتني أمي سألتني بابتسامة:
-رايح فين يا آسر؟
نظرت لها، واقتربت منها عانقتها باكيا كما كنت أفعل حين ارتكب خطأ في صغري بكيت طويلًا إلى أن هدأت قليلا، فاأمسكت هاتفي نظرت للرسالة التي لم أرسلها منذ سنوات منتظرًا أن أتأكد من حبها الشديد لي، لكنها لم تحبني. فهي كما قالت سابقا عن نفسها خائنة حقيرة (مليانة قرف) لكنها أسوأ، بل أسوأ حالا من البغي، رخيصة باعت لي الحب، وباعت لرجل آخر عناقها له قد يكن ما جمعهم أكبر ليتزوجها. لعل رجال مَريم أعدادهم أكثر مني، ومن هذا الخطيب الغافل، وأنا الأحمق الأكبر كيف لم أفسر يومًا غموضها الدائم؟ رأيتها مختلفة عن بنات حواء فكانت أسوأهن. خائنة جميعهن يستطعن التضحية بأي شيء مقابل ما يردنه. جميعهن مَريم إن أتيحت لهم الفرصة. أصاب قلبي داء لم أعرفه من قبل أمرض قلبي الحب، فشِخْتُ مبكرًا لمُّا أصاب فؤادي. مر الأسبوع قاسيا مذلا أذلني الألم تعذبني عقارب الساعة. لتعلن عقارب الساعة تجاوز الوقت الساعة الثانية عشر

ليلًا ليخبرني أحد أصدقائي أن حفل الزفاف قد انتهى. تخيلت ما قد تكن تفعله الآن، لعلهم في غرفة النوم يحاول مساعدتها في خلع ثوبها الأبيض ثم يجذبها إليه لن تمانع. لم أستطع تخيل أكثر هرولت إلى الشارع. جريت إلى أن لم تستطع قدمي حملي، فجلست على الرصيف الخالي إلا من عدد قليل من المارون ليلًا في مدينتي التي لا تنام.

لم أهتم بنظرة المارين، وفضولهم لمعرفة سبب حالتي المزرية. لم أجرؤ على مصافحَتها لأحافظ على طهارة حبنا. لأراها بعد سنوات من انتهاك قلبي وعقلي في أحضان رجل آخر، لينعم هو بما صنته لسنوات، لكن الأمر لم ينتهِ بعد. .

(أمينة)

انتهت اختبارات آخر العام بالأمس، ولن يسمح لها بمغادرة المنزل طوال الإجازة الصيفية، ستحرم من زيارة مريضها لكنها لن تستطيع التوقف عن زيارته، هو أقرب البشر إلى قلبها تحتاج لقاءه هناك رابط خفي يربط بينها، وبينه. لا تعرف اسمه، ولا أي مما يخصه، لكنها تعرف رقم غرفته، تعرف نومته التي لم يفارقها. تعرف أصابعه الممدودة، وبداخل كفه شريان من المحاليل ليمده بالدواء، وما يجعله يحتمل العيش أكثر. تمنت لو أنه يراها بأحلامه. أو ينصت لحديثها إليه. لن تستطيع التوقف قبل أن تسمع صوته، وترى ملامحه بدون تلك الأجهزة.

عادت منزلها، وقد وجدت الحل لرؤية مريضها دائمًا. حين فتح أبوها الباب لها كان عابس الوجه اعتادت على تلك النظرة. ساعدت آثار في تحضير المائدة، وأعدت لأبيها كوب الشاي حتى تحاول إخباره ما قررته، وقفت أمامه سيطر عليها الخوف ثم تجرأت، ونطقت.

-بابا.

نظر لها، فأكملت حديثها:

-أنا. . . أنا عاوزة أشتغل.

نظر لها بملامح غير مفسرة ثم رد، وهو يشاهد التلفاز:

-معنديش بنات تشتغل.

-بس أنا عاوزة أشتغل.

ضحك ساخرًا منها كأنه لا يراها، وأنها لا تعي ما تقول.

-أنا محتاجة أشتغل يا بابا.
لم تتلق الرد كلمات كان الرد صفعة على وجهها أوقعتها أرضًا. ثم صاح:
-لما أبقا أموت أو معرفش أأكلك ابقي اشتغلي يا آنسة!
ساعدت آثار أمينة على النهوض لم تبك أمينة فقط نظرت لأبيها بجحود، ثم دخلت غرفتها. تركتها آثار وعادت لزوجها كان بغرفة النوم يبدل ثيابه.
-ما تتكلم معها عادي لو مرة زي أي أب، وبنته.
-دي عيلة مش فاهمة حاجة. دلعك مارعها. سيبيني أربيها!
-بنتي متربية!
-ماهو باين. وبعدين اكسر للبنت ضلع.
-مش كدا بالهداوة!
نظر لها ساخرًا، وأكمل ارتداء قميصه، وهندم هيئته، ثم التفت إلى آثار بحزم:
-مفيش خروج لأمينة لو خرجت متلومينيش على حاجة.
نطق بوعيده ثم غادر المنزل مغلقًا الباب بقوة، مما بث الخوف في قلب آثار. لكن ما يبث الخوف حقًا لم يحدث بعد.

(. . . . .)

لا يحمل الحب السعادة يحمل الآلام، يلهون بقلوبنا ثم يرحلون أبي أيضًا لم يختلف عني، ولا عن باقي المعذبين في الأرض بداء لعين يدعى الحب.
منذ سنوات كنت صغيرا لا أذكر عمري ذاك الحين، أذكر فحسب مرض أبي الشديد لدرجة أنه كان يتمتم بكلمات غير مفهومة، لكن تلك الليلة تحدث بكلمات عن قطار، وفتاة، ونظرة، وشيء لم يلحقه. لم أستطع بعقلي الصغير أن أفسر تلك القصة، فانتظرت سنوات لكني لم أنسَ تلك الكلمات حين بلغت الحادية عشرة، حانت الفرصة فسألت أبي عن سبب تمتمته بتلك الكلمات. كنا جالسين نتسامر ليلًا دائمًا كنا نكررها، كنا صديقين كان صديقي الأقرب. ابتسم، وسألني:
-أمك سمعت هي كمان؟
فهززت رأسي نافيًا فابتسم، وبدأ سرد قصته أخبرني أنه كان شابا في مقتبل العمر اضطر السفر للإسماعيلية من أجمل عمله. كانت زيارته الأولى لتلك المدينة سعد بتلك السفرة، فأتم عمله، وانتهت سفرته، لكنه تأخر قليلًا على موعد القطار المتجه للقاهرة كان القطار تحرك أسرع ليلحق به، جرى سريعًا، فوقعت عيناه على فتاة لم تكن أجمل من وقعت عليها عيناه، لكن تلك الثواني السريعة قبيل عدم قدرته على اللحاق بالقطار تبادلا فيها النظرات فحملت نظرتها القصيرة دفئا غريبا اجتاح قلبه من تلك النظرة التي رحلت مع رحيل القطار السريع، تمنى أن يراها لكن لم يرها مرة أخرى، فبحث مرارًا عن بديل لدفء نظرتها السريعة، فخاب أمله، أَحب

أمي، وتزوجها لكنه لازال يتذكر فتاة القطار. أرهقه حب فتاة مرت لثوانٍ. . فبت قتيلًا أنا الآخر لكني قتلت لسنوات، أخبرني الكثير عن مرارة الحب فتمنيت ألا أقع بالحب، لكني شربت كأس لم ينتهِ، ولن ينتهي من مرارة الحب.

*****

ليأتي اتصال آية غفلة، فيبعثرني، لم أفهم سبب اتصالها فظننت أنها علمت بأمر مَريم فأرادت السخرية مني لكن خاب ظني ما إن رددت على اتصالها.

-ازيك؟

-الحمد لله.

بكت كأغلب محادثتنا دائمًا ما تبكي، ضعيفة لدرجة مزرية تجعلك تشفق عليها.

-انت سيبتني ليه؟ عايزة أعرف. .

-علشان مستاهلكيش أنا ضحكت عليكي. أبعدي عني يا آية.

-أنا عملتلك إيه لدا كله؟

-مشكلتك إنك مبتعمليش أنا اللي عملت. عايزة تعرفي هقابلك، وأقولك كل حاجة. يمكن تفهمي.

(أمينة)

رفضت آثار السماح لأمينة بالخروج من المنزل، ثم سحبت أمينة من يدها إلى غرفتها، وأدخلتها بقوة. قاومت أمينة في البدء ثم استسلمت لمنع آثار لها من مغادرة المنزل. فجلست أمينة على السرير، وضمت قدميها إلى صدرها فبدأت دموعها المقهورة في السيل دائمًا كانت تلك الجلسة الأفضل بالنسبة لها، لتبدأ في الصفح عن حزنها جلست آثار نظرت لابنتها التي لم تنجبها لتراها بتلك الحال من التعاسة، فنظرت أمينة لآثار من بين دموعها بعجز.

-عاوزة أخرج أنا تعبت.

-لو عليا أخرجك بس أبوكي انتي عرفاه كويس.

فصاحت أمينة بغضب:

-انتي عيشة معاه ليه؟ مسبتيهوش ليه؟ أنا برتاح من غيره، وانتي بترتاحي!

جلست آثار بجوار أمينة فتحولت ملامحها من امرأة حسناء لوجه كئيب التهمه الكبر، والحزن فشاخ مبكرًا.

-مستنياه يتغير، أو أي حاجة تتغير. بس كل حاجة زي ما هي. لا كل حاجة أوحش.

تبدلت نبرتها من الشكوى إلى العتاب، والحنق.

- وهو نفسه أوحش، وأنا كمان أوحش، وأوجع. . زهقت.

بدأت دمعاتها تتساقط.

-والله زهقت.

استمر بكاؤهما طويلًا، دون أن تبوح أي منهما عما يؤلمها. أجلا البوح لوقت آخر.

(. . . . .)

تركت لآية اختيار مكان لقائنا هذه المرة، حتى تكون قد اختارت شيئًا في حياتها. حين جلست أمامها تذكرت مَريم، تذكرت حديثها. ابتسامتها. أبغض أني لازالت أذكرها بين الحين، والآخر. لمَ لم تهجرني ذكراها إلى الآن؟ طيفها لعين يحولني لشخص آخر. انتبهت من شرودي، لأجد آية ترمقني باندهاش، ثم قالت:

-عامل إيه؟

-بخير الحمد لله، وانتي؟

تأملتها. كانت مضطربة أعلم أنها جاءت لتعرف سبب هجري لها، ولكنها في الحقيقة لم تأت لهذا السبب، جاءت لتجد سبيلًا لتعيدني إليها حتى تستطيع الاستمرار في حبي. فلم أمهلها ليتطور حديثنا إلى أن تتوسلني ألا أتركها، لن أتركها تتحول إلى ذليلة لي.

-عارفة سبتك ليه؟

هزت رأسها بوهن ثم قالت:

-لو كنت أعرف مكنتش سألتك؟

نظرت لها مبتسماُ، أردت إغضابها.

-مكنتش بحبك. محبتكيش بس حبيت واحدة تانية من تالت سنين كاملين. . ومقولتلكيش.

تبدلت ملامحها إلى غضب فرأيتها غاضبة للمرة الأولى.

- ازاي يا آسر؟

-ازاي! زي ما كنتي بتستنيني أقولك بحبك. كنت أنا بقولها لواحدة تانية طول الوقت، وكنت أنا اللي مستنيها تقولهالي. كنت بتبسط، وأنا بكلمها، بتحولي مودي في لحظة. كانت بتمرمطني، وبقبل نفس اللي كنتي بتقبليه مني. . كنت بحبها يا آية.

استمعت بضيق حاولت إخفاءه، خشيت أن تبكي، وانتظرت ذلك حتى أتركها في شدة ضعفها لتبغضني سريعًا، ولكنها ضحكت بصوت عالٍ كأني قصصت لها خبرا مضحكا، لتتوقف عن ضحكها بعين دامعة من شدة الضحك. فأغضبني ضحكها فأردت استفزازها.

-مكنتش عايز أخدعك. اتمنيت تسيبيني، بس من يوم ما عرفتك، وانتي أضعف من إنك تاخدي بالك إني لعبت بيكي.

ضحكت مرة أخرى، ثم غادرت المكان، وهي مستمرة بالضحك، بقيت كما أنا لم أستوعب تصرفها، لكني قبلت إهانتها لي بهذا الشكل، ولكني عدت من هذا اللقاء على يقين أن بنات حواء جميعهن مَريم، ولا يمتون للوفاء بصلة، يتوهمن بأنهن يسرن على طريق الحب، لكنهن لا يعرفن طريقه بعد فيضلوا، ونقتفي نحن ما تبقى منهم من طيف، فيذيبنا رحيلهم لنصبح أشباه قلوب. حاولت تناسي كل ما أزعجني بالسابق لأهنأ بحياتي بعيدًا عن مَريم، وآية، وشتى بنات جنسهما لتفاجئني أمي بسفرها إلى الإسكندرية لزيارة عمي لا أعرف ما سبب رغبتها في السفر للإسكندرية الآن، وهي التي رفضت دائمًا السفر بعد موت أبي، لم أحاول منعها، فلا يحق لي، ولكني رفضت السفر معها. أردت التخلص مما أصابني أثناء سفرها. لتعود، وقد شُفيت. ليطرق بابي بعد مضي ثلاث ليال من رحيل أمي. لأجد زائرة تحمل لي مصيرا آخر دون أن تدري. . .

(آثار)

انتهت من أعمال المطبخ، وأشعلت التلفاز لتهنأ بالراحة قليلًا قبيل عودة زوجها. أرادت التخفيف عن أمينة، وعن نفسها، فهيأت المنزل لجلسة سمر ما بين أم، وابنتها. دخلت غرفة أمينة، وقد قررت ألا تقبل بأعذار أمينة، ستجبرها على إتمام تلك الجلسة. لكنها لم تجد أمينة، وجدت ثياب المنزل خاصة أمينة ملقاة على السرير، بحثت عنها كالمخبولة في كل ركن بالمنزل دون جدوى لم تجدها. فجلست أمام التلفاز. نظرت دون أن تشاهد ما يعرض. شعرت بأن قلبها قد خلع من مكانه، خشيت أن تكون أمينة فعلت كأخيها، ورحلت بلا عودة لن تحتمل أن يكون هذا ما حدث.

(أمينة)

دخلت أمينة غرفة مريضها، اشتاقت لزيارته، فمنذ ما يقرب من أسبوعين لم تطأ قدماها غرفته. تأملت ملامحه، وسكونه. وجهه الذي لم تعتله أي تعبيرات أو إيماءات منذ شهور. جلست بجواره أخرجت من حقيبتها مشطا، وقامت بتمشيط شعره استمتعت بمحاولتها الاهتمام بهيئته، لعله حين يفيق يسر لرؤية هندمته تحدثت بما أرادت نطقه فقط.

-أنا أمينة لتكون نستني. بقالي أسبوعين مزورتكش. انت ممكن تكون مش شايفني، ولا سامعني بس أنا مبسوطة، وأنا شايفاك، وأنا سامعة صوت نبضك. . مكنش عندي حاجة أعملها قبل كدا.

تنهدت ثم أكملت:

-مش عارفة هزورك تاني امتى. بس أكيد قريب.

تأملته طويلًا بابتسامة ممتزجة بشوق، شيء ما بدأ يتحرك بداخلها.

(. . . . .)

كانت آية الطارقة لبابي، لم أجد سبب لزيارتها منزلي، ومن أين جاءت بعنواني لكن لا شيء يحول ما بين امرأة وبين شيء تريده. أردت متابعة الجزء الجديد من تلك المسرحية الهزلية لتبدأ حوارها بجملة شهيرة:

-أنا عاوزة أتكلم معاك.

فسمحت لها بالدخول، لكن الزيارة المفاجأة، جعلتني أغفل أن أمي ليست بالداخل. دخلت باستحياء، أشرت لها أن تجلس، فجلست على الأريكة، تذكرت، وأنا أعد لها الشاي بالمطبخ أن أمي ليست بالمنزل، ولكن فتاة بتلك الجرأة لتأتي إلى منزلي، لن يزعجها غياب أمي عن المنزل. أحضرت كوب الشاي، ووضعته أمامها. ثم جلست على مقعد يبتعد عن الأريكة التي تجلس عليها بمسافة كافية. كانت خجولة صامتة، ثم نطقت بارتباك:

- انت ليه بتكدب عليا؟

لم أعرف مقصدها لأني لم أكذب في أي مما أخبرتها إياه بالسابق فنظرت لها غير مبالٍ. أريد إنهاء تلك اللعبة سريعًا:

-أنا كدبت في إيه؟

-قولت إنك حبيت غيري، ومحبتنيش. هو أنا بني آدمة وحشة لدرجة إنك كدبت كدبة زي دي علشان تبعدني؟

أضحكتني بشدة كلماتها. تحاول إثبات أنها الضحية، تتصنع السذاجة لتثبت أني الجاني، لكن ضحكي أشعرها بالمهانة، فوقفت أمامي لأراها للمرة الأولى بهذا الشكل. صرخت في وجهي:

-انت راجل قوي كدا يعني. ولما انت راجل ما تقولي السبب.
وقفت أمامها، وأجبتها بغضب أنا الآخر:
-أنا قولت الحقيقة. افهمي بقا.
ضربتني بيدها الضعيفة في كتفي من فرط غضبها، فأمسكت يدها محاولًا منعها من ضربي، فتملك مني شيطاني. فاقتربت منها أكثر جذبتها إليّ بقوة، وحاولت تقبيلها عنوة. لم تستطع مقاومتي، فتماديت. فأعاد رشدي صوتها.
-حرام عليك يا آسر. بالله عليك سيبني.
شعرت بما ارتكبه من فحش، فأطحتها بعيدًا، كانت تبكي نظرت لي بذعر فخجلت من نفسي، وضعت غطاء رأسها، كنت خلعت غطاءها، وعدلت ثيابها، وهي تهرول إلى خارج الشقة. كلما تذكرت نظرتها بخوف إلى هذا الحد أراني مجرد حيوان خلعت من قلبه الرحمة، ماذا لو لم توقفني كلماتها؟ لم أختلف عن مَريم خانتني فأقدمت على خيانة فتاة ائتمنتني لدرجة دخولها بيتي لتخرج منه مذعورة. مرت الأيام ثقيلة، لعشرة أيام أهاتفها فلا تجيب. يحق لها ألا تغفر لي، فلم أستطع أنا المغفرة لنفسي، فقررت عقابي بما أستحق فأخبرت أمي أني أريد الزواج فرحت أمي لهذا الخبر، لم أضيع الوقت لينتهي اليوم التالي بي أقف بصحبة أمي أمام منزل آية عبد الرحمن.

(أمينة)

عادت أمينة إلى منزلها لتجد آثار. جالسة، وقد أرهقها القلق ما إن لمحت أمينة أسرعت إليها كالملهوفة عانقتها بشدة، فظنت أمينة أن مكروها وقع، فنظرت لآثار بقلق.

-في إيه يا ماما. مالك؟

-علي وحشني، دا حتى مقلش إنه مهاجر علشان أودعه.

لامست أمينة كتف آثار برفق:

-بكرة يرجع، وبعدين يا ست الكل أنا جنبك أهوه.

بكت آثار فضمتها أمينة إليها أكثر، ثم حاولت التخفيف عن أمها.

-إيه الدموع دي كلها. دي تحويشة العمر، ولا إيه؟

قالت آثار بصوت متهدج:

-خوفت تكوني مشيتي انتي كمان زي علي.

-كنت محتاجة أخرج، وخرجت مش هخرج تاني غير بعد إذنك.

مسحت أمينة دمعات آثار، ثم سحبتها، وقالت، وهي تجلسها على الأريكة:

-اجلسي أيتها الملكة.

فابتسمت آثار، وجلست أمينة بجوارها. سمعت مرارًا أن الأم وابنتها جسدان لروح واحدة، لكنها تقر بذلك الآن حزنت لحزن آثار تمنت أن يعود أخوها لتطمئن آثار أو تجني أموالا كثيرة، فتستطيع السفر لزيارته.

مرت الليلة هادئة، فانتظرت أمينة مغادرة أبيها المنزل، ثم ألحت على آثار لتسمح لها بالنزول من المنزل. فوافقت بعد إلحاح شديد. أسرعت أمينة

إلى مريضها، فأوقفتها الممرضة صابرين قبيل دخولها غرفة مريضها.
-ازيك؟
-أنا بخير.
-انتي قولتيلي تقربي إيه للمريض؟
ظهر على أمينة التفكير ثم أجابت:
-بنت خالته.
ابتسمت صابرين بلؤم كأنها تكشف ادعاء أمينة القرابة.
-وأمك مبتزرهوش ليه؟
-ماما مسافرة. فباجي أنا، وأطمنها.
-الدكاترة، هيشيلوا الأجهزة عن المريض، ولو ليه عمر هيعيش.
انفعلت أمينة:
-يعني إيه. مش فاهمة، هو مش بني آدم، ولو مات هيبقى في رقبة مين؟ هي مستشفى، ولا جزارة.
ابتسمت صابرين بهدوء، وقالت:
-دي مستشفى حكومي، وهو بقاله شهور كدا، وفي طابور عيانين مستنيين سرير يتعالجوا عليه. وأنا دوري أنفذ، وبس. أنا عبدة المأمور.
-طب إيه الحل؟
-ادعي يدولوا وقت، وادعيله يفوق.
أخرجت أمينة من حقيبتها ورقة، وقلما، وكتبت رقمها في الورقة، ثم أعطت الورقة للممرضة صابرين، وقالت راجية:
-بالله عليكي، لوقرروا يشيلوا الأجهزة عنه بلغيني.
ابتسمت صابرين بحنو.
-أنا عبد المأمور والله. بس لو حصل حاجة هكلمك وأقولك حاضر.

تركت صابرين أمينة، فوقفت أمينة تنظر لمريضها عبر الزجاج، لن تستطيع دخول غرفته بتلك الحالة تشعر أنه يراها أو يعلم ما تشعر به. تمنت من الله أن يفيق لن تحتمل موته، فهو يكفيها عن باقي البشر. وقفت كما هي تنظر له إلى أن هدأت قليلًا، فدخلت غرفته جلست بجواره، لم ترتب كلماتها. دعتها تخرج كيفما أرادت.

-وأنا صغيرة كانت في وردة حلوة في بلكونة الجيران. كنت بكلمها بقف أبص عليها لساعات. كنت بكلمها بعقلي كانت بتسمعني مبتردش، بس بتسمعني. عدا الوقت وخدت على إني أحكيلها هي وبس. أصل أنا مكنتش بلعب بابا مبيسبنيش ألعب، والعيال بتعرف بعض في اللعب، فمكنش ليا صحاب. إلا الوردة دي كانت صاحبتي. لحد ما جه يوم كنت واقفة باصة على وردتي فخرج ابن الجيران. كان رخم أوي قطعها، ورماها كانت عنده حتة وردة، بس عندي كانت كل حاجة في شكل وردة. لما موتها سكت، وفضلت ساكتة سنين. لحد ما جيت المستشفى صدفة. لقيتك هنا صدفة بردة. أصل انت شبه وردتي، انتوا الاتنين بتسمعوني، وانتوا الاتنين ضعفا. بس هي كانت وردة، لكن انت مش ضعيف.

تحدثت بحماس ممتزج بحزنها:

- فوق، حرك إيدك. اضحك. ازعل. اعمل أي حاجة.

أنهت حديثها لتجد دموعها قد فرت من عينيها.

*****

عادت منزلها مثقلة بحزن دفين. كأن سكينا شق صدرها، ووضع بداخله حبات حزن نمت بداخل قلبها، دون السماح لهذا الجرح بالنزف. . كان أبوها في انتظارها، يحمل لها مسارا آخر.

بقايا

تنتهي القصص، والوقت ينفذ، فنتحول إلى مجرد بقايا أهملناها فاستنزفتنا

(الممرضة صابرين)

كانت المشافي بالسابق مكان لراحة المرضى، ونحن ندعى ملائكة الرحمة، ولكني بت لا أرى أي رحمة داخلنا. نعاني من راتب لا يكفي لشيء، ومشاكل منزلية تجعلنا لا نحتمل المرضى، تحولت كل مظاهر الحياة في مصر، وصحة مرضاها إلى أرقام من المال. حين تملك ما يفيض عن احتياجاتك، فيحق لك معاملة الناس بعنف، أما إذا لم تملك ما يكفيك فيحق لك تعنيف البشر من سوء ما تعيشه. أصبحت مدينتنا متاهة التعساء في رحلة العيش. تحولت حياتنا في المشفى إلى أرقام لا نبالي بأحد. يشغلنا كم نجني من المال، ومرضانا مجرد أرقام لحالات. مجرد أسرة تحمل مرضى قد يشفون، وقد يتوفون، فموت المرضى عبارة عن روتين دائم يعلن فراغ السرير لحالة قادمة، لكن كل شيء قد اختلف في ليلة لم تكن عادية منذ ثلاث سنوات لي كان جاري شخصا هادئا صاحب طقوس صارمة. لا يأتي الليل إلا وأنغام صوت أم كلثوم تعلو من شرفته طوال الليل. رجل في الأربعنيات وحيد لدرجة أنه اكتفى بنفسه عن باقي البشر كان غامضا بالنسبة لي. عدت من عملي يومها فسمعت صوتا يشبه شيئا ضخم رمي في شقة جاري، لم أهتم لكن امرأة وحيدة مثلي تراقب جل ما حولها بتمعن دون قصد. فأنغام أم كلثوم لم تعلُ هذا ما أقلقني فذهبت إلى بابه، وطرقت لم يجب طرقت مرارًا دون جدوى إلا أن طرقي جذب جيراني لمعرفة ما يحدث، فاستطاعوا كسر الباب. دخلنا، فكان جاري ملقى على الأرض، بجواره كرسي يبدو أنه كان يحمله حين سقط فاقد الوعي. أسرعنا به إلى المشفى التي أعمل بها،

وبفضل عملي استطعت إدخاله المشفى، لو لم أكن أنا من أدخلته، لكانت المشفى رفضت معالجته متحججة بأن الأسرة ممتلئة. أدخلته، ووضع بغرفة الملاحظة، وتم فحصه، وإسعافه، جاء التشخيص بأنه مريض بداء قصور في عضلة القلب. تابعته كنت أدخل من الحين للآخر أطمئن عليه، وأقوم بتقديم الخدمة الطبية له كأي مريض آخر، لكني كنت أزيد بضع أسئلة تقليدية عن حاله ثم أتركه لأكمل عملي. ليأتي دوري في المناوبة ليلًا. طلب التمريض، فذهبت إليه. كان مهموما مزحت معه، ثم جلست بجواره على السرير. لكنه كان ينظر للجهة الأخرى، فاقتربت من وجهت نظره، لم يكن ينظر لشيء كان يبكي فأدار ظهره حتى لا أرى دمعاته، فحاولت التخفيف عنه.

-بتعيط على إيه؟ حالتك بتتحسن، وهتخرج.

فأجابني بصوت مختنق دون أن ينظر لي:

-أنا عارف إني عندي القلب ومكنتش عايز أتعالج. كنت عايز أخلص.

استمعت لكلماته، فالتفت لي أمسكني من ذراعي فانفعلت كدت أوبخه، لكن عيناه، وصوته كانا حزينين، حزن ألجم لساني الطويل، ومنعني من النطق.

-مين قالك تجيبيني هنا؟ انتوا ليه بتسيبوا اللي عايزين يعيشوا، وتهتموا باللي مش عاوزين.

-علشان تعيش.

-ليه؟

-تعمل حاجات حلوة. تتبسط. تعيش.

لم يجب ابتسم ثم بكى بشدة لم أحاول منعه، أو تهدئته. تعلمت أن أقل

حقوق البشر هي أن يبكون. نظرت له لكنه لم يرفع عينه تجاهي. شاب في الأربعينات يبكي بهذا الشكل. لم أر بحياتي رجالا يبكون، كل من عرفتهم يتسببون ببكاء الآخرين ليس إلا، لكنه بكى، وانتحب، حين شعرت أنه أنهى بكاءه خرجت من غرفته دون أن أنظر إليه. رأيت الكثير من أجساد البشر الضعفاء، ورأيت دمعاتهم، وآلامهم أعلم كيف يؤلمهم رؤيتي ذلك، فلن أكلفه خجل رؤيتي لحظات ضعفه أغلقت الباب بهدوء، أعرف أنه شعر بخروجي من الغرفة، ولم يلتفت لي. انتابني عذاب الضمير من أجل رؤيته بهذا الشكل لا بد أن رؤيتي له زادت من حزنه. لم أمر على غرفته لأيام تلت تلك الليلة، تركته يفرغ ما بداخله من حزن، وأسى حتى لا يوجعه ضعفه أمامي يكفيه وجع الجسد، وعجز الروح. لكني زرته بعد تلك الأيام. ذهبت المشفى مبكرًا قليلًا. دخلت غرفته كان نائم، وضعت بجواره مذياعا صغيرا ابتعته لأجله، وقبيل انتهاء عملي مررت من أمام غرفته سمعت صوتا يشبه تغيير محطات الراديو، فعلمت أنه قبل هديته، ونالت إعجابه.

في اليوم التالي حين دخلت غرفته لأعطيه دواءه. وجدته ينظر من نافذة غرفته، وصوت الست يعلو من مذياعه. نظرلي بامتنان، وابتسامة واسعة. أعرف تلك النظرة نظرة حبيب خبأ ما بداخله، ففضحته عيناه. لم يرفع عيناه عني. لو أننا في القرن الماضي، وزي العمل فستان أبيض قصير محكم عند الخصر وشعر مرتب لقلت إنه أعجب بزيي لكن ثيابنا الآن أقل ما يقال عنها أنها رديئة. سألني:

-إيه أخبارك؟

اقتربت منه لأناوله دواءه وقلت:

-الحمدلله بخير.

-بسألك. إيه أخبارك؟
-أحسن منك.
كنت أمزح، ولكنه صمت. أغبية لدرجة أن أقول لمريض إني أحسن حالًا منه لا بد أني أحسن حالًا! فصحتي أفضل. لكنه لم يغير معاملته معي ابتسم في وجهي بحب دائما. يهرب من وسط أفراحه وضحكاته لحزن يجتاح وجهه، فيصنع مزيجا من الحزن والفرح يضيف إلى وجهه وقارا يجعلني أخشى محادثته بحرية. وأنا التي لا تخشى أحدا. لأدخل عليه فأجده يبكي بأنين تألمت لألمه فالنساء تبكيهن أقل الأسباب. أما الرجال فبكاؤهم يكون لعجز شديد. رأيت دموعه لم أستطع عدم التدخل فسألته:
-انت كويس؟
ضمني إلى صدره، وبكى وانتحب بشدة. لم أستطع محاولة سحب نفسي من بين يديه. احترمت رغبته في ضمي. كان بكاؤه قاسيا، ذكرني ببقايا الماضي العالق بروحي. أجهدني حزنه كما أجهدني الزمن كان كطفل صغير يحتضن أمه. فأردت أن أوقف بكاءه.
-كفاية علشان قلبك.
-قلبي مليان. مكسور منك.
سحبت جسدي منه، ونظرت له بدهشة.
-أنا؟!
-أنا بحبك بقالي سنين من يوم ما سكنتي جنبي. تعبتيني بإنك مش شيفاني. تعبني اللي فات، وقتلني قلبك اللي مشافنيش.

*****

أخرجها من ذكرياتها صوت زميلتها هدى التي تجلس أمامها في الغرفة

الخاصة بالممرضات.

-بقولك الواد قال لنورا اللي في المستشفى اللي جنبنا. عايزاني أتجوزك تشيلي معايا في الشقة، والعفش، وكله. شكله عايز يخلع من البت. مقلهاش الكلام دا من عشر سنين أول ما عرفها ليه؟

هززت صابرين رأسها بإيماءة، لتوضح لهدى أنها سمعتها، ثم قامت لتزور الغرفة التي لم تطأها قدماها من سنوات.

(أمينة)

نحلم جميعًا أن تصبح حياتنا رواية مثيرة. متناسين أن الجانب الشيق في الروايات غالبًا ما يكون الجانب التعيس، لكننا نبحث عن السعادة ليس إلا متغافلين الأقدار الأخرى، لكن أمينة أيقنت أن حياتها أصبحت رواية بائسة منذ أن فتح أبوها الباب. كان غاضبا كما لم يغضب أبدًا، ما إن وطأت قدماها بالمنزل صفعها، وسحبها بعنف إلى غرفتها ألقاها داخل الغرفة، وأغلق الباب بالمفتاح. حاولت آثار أن تمنعه من فعل ذلك لكن دون جدوى. لم ترَ أمينة عقاب أبيها كعقاب، دائمًا ما كانت غرفتها ملجأها الأول للهروب من هذا العالم السيئ. لكن عقابها الحقيقي الذي لم يدركه أبوها هو انشغالها بمريضها الذي قد لا تستطيع توديعه إذا رفعت عنه الأجهزة التي تمنحه الحياة.

تُفتح الغرفة حين عودة الأب من العمل. طوال وجوده بالمنزل يحق لأمينة التفتل بالمنزل كيفما أرادت، وحين يخرج من المنزل تكون حبيسة غرفتها. أسوأ ما كانت تخشاه هو أن تظل حبيسة تلك الغرفة لنهاية الإجازة الصيفية. تتمنى أن تتصل صابرين لتتعرف منها على حال مريضها، لكن اتصال صابرين لا يعني سوى أنه قد اختير له الموت.

بينما هي منشغلة بوضعها، وحال مريضها دخل أبوها غرفتها دون استئذان، وأمسك هاتفها من يدها، والشر يتطاير من عينيه. فحص كل ما بداخله. لم تكن أمينة مسحت رسائل أحمد، ورسالتها إليه التي أخبرته من خلالها أنه لن تستطيع حبه أو حب أي آخر كانت قد أعجبتها تلك المشاعر حين أخبره

بحبه فخفق قلبها، والاضطراب الغريب الذي انتابها حين رأته آخر مرة بالجامعة، وإن كانت لا تحبه لكن تلك المشاعر أعجبتها. حين رأى أبيها تلك الرسائل قذف الهاتف على بلاط الغرفة ثم صاح بغضب جعلها ترتجف:

-مين أحمد دا؟ هو دا اللي بتقابليه وبتهربي من البيت علشانه؟!

سيطر عليها الخوف.

-دا زميلي، وبس.

-زميلك اللي بتتسرمحي معاه!

قبل أن تجيب أو تبرر انهال عليها ضربًا. تعالت صرخات أمينة، فخشيت آثار أن تحاول منعه.

انتهى كابوس العنف بأمينة تبكي من الألم داخل غرفتها بجرح بشفتيها، وأنف تنزف، وجرح صغير بجبينها. تعلم أن حديث حاد دار ما بين آثار، وأبيها. لا تعرف ما حدث لكن صوت آثار ارتفع على أبيها لم تكن المرة الأولى التي تضرب أمينة من أبيها، ولكن شيئا جديد حدث، فقد نامت في غرفة أمينة كان يظهر على وجه آثار الحزن، تفهمت أمينة عجزها لكنها غاضبة منها أيضًا، وغاضبة من هذا الحظ العثر. ماذا إذا اتصلت صابرين، لن تستقبل المكالمة، وقد لا ترى مريضها مرة أخرى.

*****

حمل اليوم التالي نبأ جديدا. حدثتها آثار بخوف تعلم أن أمينة ورثت بعضا من غضب أبيها.

-أبوكي. . .

صمتت آثار، ولم تهتم أمينة بالحديث لا يهمها ما يخص أباها، وستخبرها آثار أنه في النهاية أبوها، وأنه لا بد أن تحتمل أمينة أكثر. فأكملت آثار:

-في واحد مع أبوكي في الشغل. ابنة اتقدم لك و. . أبوكي وافق. وهيتقدموا بعد أسبوعين.

لم تستوعب أمينة هذا النبأ في البدء، ثم غضبت ثارت في وجه آثار:

-أنا مش هتجوز حد. مش هو بيخاف من الفضايح أنا هعمله فضيحة، وهطرد له العريس، وأهله. أنا مش هتجوز. أب فاشل، وزوج فاشل، وهيتحكم في حياتي كمان. أنا مش هتجوز. مش هبقا ضعيفة، وجبانة زيك!

تعبت أمينة بعد أن أفرجت عما بداخلها من غضب، فصمتت من جديد بوجه عابس مجبر على العبوس فلا يوجد ما يسر. شغلها حاضر قد يحتضر به مريضها وصديقها الأوحد، ومستقبل سيجعلها تحتضر ببطء لسنوات طويلة. مملة، وقاسية. انتظرت أمينة مفاجآت أخرى ستحدث حتما.

(. . . . . .)

لم أتخيل، ولو بحلمي أن يأتي اليوم الذي أقف أمام منزل آية، ومعي أمي.
لم يكن العرف يسمح بأن نأتي أنا، وأمي دون إخبارهم مسبقًا، فحسب العادات يجب أن تأتي أمي في زيارة بمفردها لتخبرهم برغبتنا في التقدم لخطبة آية، وإذا تمت الموافقة بشكل مبدئي آتي أنا وأمي. فتح الباب في المرة الثالثة لدق الجرس. فتحت لنا الباب امرأة أربعينية تشبه آية علمت من وجهها أنها والدة آية.
-دا بيت آية عبد الرحمن؟
قالت أمي تلك الكلمات فتحول اندهاش والدة آية إلى ابتسامة. لعلها عرفت بفطنتها سبب زيارتنا.
-اه دا بيت آية. اتفضلوا.
رحبت بنا، وسمحت لنا بالدخول أجلستنا في غرفة الضيوف، ودقائق قليلة، وخرج إلينا رجل في الخمسينات بشعر أبيض كثيف، وبطن صغيرة تراه من الوهلة الأولى رجلا مسالما. أخبرتهم أمي عن سبب زيارتنا، فسألني زوج أم آية أسئلة كثيرة جدا عن دراستي، ومستقبلي، وكل ما يخصني. تركتنا والدة آية مرارًا. لتخرج آية بعد ما يقرب من مضي أربعين دقيقة لنا داخل منزلهم. كانت مرتدية عباءة فضفاضة، وحجابا يبدو أنها وضعته بدون أي اهتمام. ففهمت أنها أرادت ألا يرى العريس شيئا من معالم جسدها، احترمت هذا الشيء، لكن البعض قد يراه على أن تعبير عن الرفض. اقتربت، وصافحت أمي دون أن ترفع عينيها عن الأرض. جلست على كرسي بعيدًا

عن مجلسي ما إن نطقت، وسمعت صوتي حتى تبدل وجهها. فقالت أمي ما أردته من تلك الزيارة.

-ما نسيبهم يقعدوا مع بعض. علشان لو في قبول يبقى كويس أوي، وبعدين هما اللي يتجوزوا.

مرت ثوانٍ ثقيلة إلى أن أصدر زوج أم آية فرمانه قائلا:

-نسيبهم. ما هما اللي هيتجوزوا.

بدا على آية الانزعاج، لم ترفع عينيها تجاهي. كانت متوترة، وتفرك أصابعها من شدة غضبها. غادرونا جميعا، وبقيت أنا، وهي فقط. فقلت:

-أنا آسف. اتصلت عليكي كتير أوي. أنا آسف بجد.

رمقتني ببغض شديد:

-انت ازاي تفكر تيجي تخطبني يا أستاذ. . آسر؟

قالت اسمي باستهزاء. يحق لها، فقلت ما يجب عليّ قوله:

-أنا عارف انتي شيفاني ازاي، وعندك حق تشوفيني كدا.

رفعت عينيها ساخرة:

-وبعدين!

-سامحيني أو عاقبيني. اللي يريحك. والله آسف.

ابتسمت، وقالت غاضبة بصوت خفيض حتى لا يسمع أحد من أمي أو أهلها:

- هسامحك حاضر. . بس على خمس سنين حب؟ والكلام اللي قولته في الآخر، وجملة إني مستاهلكش، والكلام اللي بعديها؟

تحول صوتها لعتاب لاذع:

- ولا على آخر مرة؟ أنا قرفانة منك.

لم أستطع النطق بحرف آخر بعد ما قالته. فكلماتها صحيحة، لكن أنها تشمئز مني ما أوجعني حقًا اللفظ قاسٍ بشدة. مرت دقائق لا أستطيع النظر لها. لكن يجب عليّ نطق ما يجعلها تغفر لي خاصة أنها لم تغادرني، وانتظرت.

-أنا عارف إني ندل، وجبان، بس مش أخلاقي اللي عملته معاكي. معرفش بقيت كدا امتى؟ بس اديني فرصة. جربي شوفي هتسامحي، ولا لا.

سمعت كلماتي، ولم تعلق اكتفت بأنها غادرت الغرفة، ولم تنضم إلى مجلس أهلينا، وأسرعت إلى غرفتها، وأنا جلست معهم. لم أهتم بحديثهم جال بخاطري ما تمنيته لسنوات. تمنيت أن أكون بمنزل مَريم الآن. أن أراها حين تبتسم، أردت تجربة ذاك الشعور معها هي. أردت رؤيتها خجلة في موقف كهذا، لكنها هجرتني فتحولت مكانتي من حبيب إلى عشيق خاسر. ذهب عقلي إلى خطبتها ممن أصبح زوجها الآن. أحاول الاقتراب منها؟ ألامس كفيها؟ كيف تأمل جسدها حين حضرت الجلسة. أفقت من شرودي على صوت أمي تقول لتعلن إنهاء الزيارة.

-اللي فيه الخير يقدمه ربنا.

ثم ودعناهم، ورحلنا إلى منزلنا. انتظرت قرارها، لكني أشعر أنها لن تقبل بي زوجا لها.

(آية)

هربت من تلك الجلسة إلى غرفتي لا أريد رؤيته. يغضبني تقدمه لخطبتي. أراد إهانتي بتقدمه لخطبتي. أهدر كرامتي بأفعاله منذ أقل من شهرين فبأي حق يتقدم لخطبتي. لم يكن بالأمر الهين أن أذهب لمنزله، لكنه كان قد قرر إشباع رغباته من الحب بالخداع. شعرت بالصدمة حين حاول الاعتداء عليها. كانت تتوقع منه أي فعل إلا أن يصدر عنه ذلك الفعل. لم يستطع عقلها تفسير رغبته في الزواج منها إلا بأنه قد أصيب بمرض الأفلام الأبيض والأسود، وأنه أراد اختبار أخلاقها ليمنحها الشهادة العليا، ويتزوجها. ما تلك الوقاحة التي تسوق رجلا أن يفعل جل ما فعله آسر دون حياء. .

بعد وقت ليس بالطويل دخلت والدتها عليها قائلة بضيق:

-ازاي تسيبيهم وتدخلي!

-كنتي عوزاني أقعد معاهم ويشوفني وعملت اللي طلبتيه.

-بس المفروض متدخليش أوضتك غير لما يمشوا. و. .

-أنا طلبت منه ييجي يتقدم؟ قلت لكوا عاوزة أقعد معاه؟ انتوا اللي قررتوا، وأنا نفذت.

تنهدت والدة آية بعدم رضا عن حديث آية.

-طب إيه رأيك؟

لم تجب آية. فتركتها والدتها بمفردها. نهشتها الحيرة أتقبل، وتنتقم مما فعل بها؟ أم ترفضه، وتكون دافعت عن كرامتها؟

(آثار)

لم يكن ما ألزمها الصمت ضرب أمينة أو قرار خطبتها، لكن ما تسبب بصمت آثار ما حدث حين خرجت لتعاتبه عما فعل بأمينة. كان جالسا بهدوء يشاهد إحدى مباريات كرة القدم بالتلفاز، فأطفأت التلفاز، ونظرت له بتحدٍ. فاشتاطت غضبًا:

- ليه كدا تشوه وش البنت؟

-كنت بعدل تربيتك البايظة لبنتك.

-بنتي! وهي مش بنتك؟

أجاب ببرود متناهٍ:

-اسألي نفسك انتي أدرى.

أسكتتها تلك الجملة فقد عاب في عفتها منذ قليل. لم يقل جملته غاضبا بل قالها ببرود ينم عن أنه قصد ما قاله. أصبحت تشمئز منه. حين يحاول الاقتراب منها تنتاب جسدها القشعريرة. ما الذنب التي ارتكبته لتنال هذالمصير؟ ابتعدت عنه كأن ضعفها قرر التخلي عنها لتواجه مصيرها. إما أن تغير من هذا الحاضر أو تخلق حياة أخرى تجعلها إنسانة لو ليوم واحد في هذا العمر.

(. . . . .)

اتصلت والدتي بعد أسبوع من تقدمي لخطبة آية لتسأل عن رأي آية. فقيل لأمي أنها لم تقرر بعد، وأن نمهلها أياما أخرى. انتظرت بصبر ينفذ إلى أن عاودة أمي الاتصال فأخبروها أن آية وافقت على الزواج بي. أصابتني الدهشة لم أكن أظن أنها ستقبل الزواج بي. أردتها أن تصر على الرفض فألح عليها حتى تقبل، ولكنها وافقت سريعًا عما اعتقدت.

تم حفل خطبتنا سريعًا، لم أمهلها فرصة لتحاول منعي من إتمام تلك الزيجة.

لم تعاملني كخطيب تجاهلتني دائمًا، كانت تعاملني دائمًا بجفاء، وقسوة.

فحين انتهينا من مراسم الخطبة. كان من الضروري أن أصحبها إلى أحد الأماكن العامة هكذا العادة يوم الخطبة. فخرجت برفقتي. فتحت لها باب سيارتي الأولى التي كنت اشتريتها قبل خطبتنا بأيام. ما إن جلست بالسيارة شعرت بخوفها مني. تخشى أن أفعل كما فعلت حين زارتني بمنزلي. نظرت لها خجلًا من ذعرها مني بهذا الشكل فحاولت تهدئتها.

-تحبي نروح فين؟

أجابت بابتسامة مقتضبة:

-المكان اللي تحبه.

لم تنظر لي بعدها نظرت من زجاج السيارة إلى الشارع، حاولت أن أطمئنها وأشعرها بحسن نواياي. فأشعلت مذياع السيارة على محطة القرآن الكريم.

شعرت باطمئنانها قليلًا، فكانت الآيات تقول:

((قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا،

وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا))
أهلكتني الآية. أخشى أن أكون خاسرا. جل ذنوبي ارتكبتها بحق من تجلس بجواري الآن. أإذا غفرت لي ستمحى مساوئي؟ أبطأت محرك السيارة أمام المقابر. ظهر عليها الهلع. نظرت لي بتحذير أرادت إخافتي حتى لا أعيد الكرة.
-انت وقفت هنا ليه؟!
-عايز أعرفك على حد.
ارتفعت نبرتها بجرأة تتصنعها، لكني أعلم خوفها.
-أنا مش هنزل من هنا، وانت خليك مكانك!

فحدثتها بود حتى تهدأ:
-ومين يدخل المقابر بالليل غير المجانين. هنتكلم من هنا. شايفة الشارع الطويل دا؟
هزت رأسها بفزع لعلها اعتقدت أني مجنون.
- أبويا هنا في تالت مقبرة. حسيت إن عيب أوي. أخطب من غير ما أبويا يشوف خطيبة ابنه. .
ابتسمت بحزن لعلي ذكرتها بأبيها. فسمحت لي ابتسامتها أن أكمل لها حديثي.
- هو كان مريض. في آخر ليلة ليه كويس قبل موته. كنت تعبان، وراجع من برة نادى عليا. كانت المرة الأولى اللي صوتي يعلا عليه فيها، وأنا بكلمه زعقت. اتأسفت له بعد شوية. بس تاني يوم تعب، ودخل المستشفى. روحت له. كان نايم على السرير مش شايفني. بس حاسس بيا، كان

بينادي باسمي. فقعدت جنبه. فضلت أكلمه، وهو مش شايفني، وبعد كام يوم مات. . .

ظهرت في عيني دمعة فابتسمت حتى أخبئها، وأكملت مازحا:

- هو إيه اللي أنا بقوله دا. دي خطوبتنا!

لوحت بيدي. كأن أبي يراني. أردته أن يشعر بي.

- بابا. آية خطيبتي أهه. أول يوم نلبس دبل.

فلوحت بيدها أيضًا:

-أنا آية يا عمي.

فصحت:

-احنا هنروح نتعشا برة. سلام.

أنهيت بتلك الجملة لقائي الذي يعد من طرف واحد. متمنيا أن يكون أحس بوجودي. أدرت محرك السيارة، واتجهت إلى أحد المطاعم لنكمل سهرتنا.

لم تنطق آية بكلمة واحدة، فحدثتها في كل المواضيع. التافهة، والجادة، وعن المكان، والحياة. فما بدر عنها إلا النظر بصمت. لم أستطع التخمين فيما تفكر. ولم أحاول لمس يدها حتى، ولم أبح بأي من المجاملات عن ثوبها الوردي الذي صنع منها أميرة لأفلام ديزني، خشيت أن تفهم حديثي على محمل سيئ. فأكملنا عشاءنا بصمت، ثم أوصلتها منزلها، وعدت إلى منزلي.

لم تنطق سوى بكلمات بسيطة لكن ما صدر عنها من الإنصات لحديثي، والتلويح لأبي كان قد طمأنني. لكنها عاملتني فيما بعد بجفاء أيضًا. فتملكني الندم على كل أخطائي التي ارتكبتها طوال حياتي بفضل طريقتها القاسية معي، لكني لم أتراجع. ليأتي يوم زفافنا مختلف عن كل الأعراس التي شاهدتها يومًا.

(أمينة)

قبيل الخطبة بيوم كانت آثار اختارت تعذيبي لذنب لم أرتكبه، لم أستطع مقاومة أبي في تلك الزيجة. فلا زلت أنا العنصر الأضعف، لتدق أجراس عقارب الساعة لتعلن قدوم العريس. فيفتح أبي الباب، ويدخل شاب يرتدي بذلة سوداء، ذو ملامح كأي رجل. ليس بالقبيح، وبرفقته رجل وامرأة يبدو أنهما والديه. حين دخلت أمينة إليهم حاملة بين يديها صينية قهوة. كان أبوها مسرورا بإنجازه لإجبار ابنته على تلك الزيجة. حين دبت قدماها الغرفة التفت إليها الجميع خاصة العريس. رمقها بشدة حفظ تفاصيل جسدها، خجلت من نظراته، فجلست على أبعد كرسي عن مجلسه. حتى تنجو بجسدها عن نظراته.

كيف يحاسب أب ابنته على أن شخص أحبها، أو أن قلبها دق لغريب، كيف لا يصح الحب، ويصح أن يدخل غريب المنزل، ويتفحص جسد ابنته بدقة عالية، وبعد أن يحفظ أبعادها جيدًا، يقرر هل تناسبه؟ أم يذهب لمنزل آخر، وفتاة أخرى بمقاييس وأبعاد مختلفة؟

بعد مرور وقت كافٍ من شرودها، للتفكير بكل ما زاد من غضبها. خرج الجميع تاركًا أمينة، والعريس بمفردهم في الغرفة. فحاول هو بدء الحوار:

-أنا اسمي عمرو. ازيك يا أمينة؟

انتابها الضيق فأجابت باقتضاب

-تمام

-انتي في سنة كام في الجامعة، وجامعة إيه؟

أجابت بضيق:
- مش بابا قالك؟
-اه. بس عاوزك انتي تقوليلي.
تمنت أن تنتهي تلك المقابلة، وتعود لغرفتها. أرادت تركه بمفرده، لكنها خشيت رد فعل أبيها، فلجأت إلى أن تمضى تلك الليلة. حتى ترحم قليلًا من أبيها.
-مردتيش. انتي مكسوفة؟
تحدثت بنفاذ صبر:
-في تالتة آداب تاريخ.
-طاب مانتي بتتكلمي حلو أهو، وصوتك حلو.
قال كلماته مغازلًا، ثم قام من مجلسة، وجلس على الكرسي الأقرب لمجلسها.
-وشكلك حلو. انتي مش هتسأليني حاجة؟
تنهدت بغضب ثم قالت:
-شايف نفسك فين كمان عشر سنين؟
ضحك بشدة فرمقته ساخرة. فانتهى من ضحكة، وسألها:
-انتي حبيتي قبل كدا؟
-لا.
-هما اللي حواليكي مبيشوفوش؟
-أستاذ عمرو.
- لا. أنا دكتور.
التفتت إليه غاضبة:
-دكتور عمرو. واضح إن حضرتك حبيت كتير قبل كدا. فمتصور إن كل

البنات عملت مع الولاد اللي حضرتك عملته مع بنات غيرهم.
قال بإعجاب:
-حلوة وانتي متعصبة. بس مش غلط أحب كتير ما هو دا هيفيدك.
أدارت وجهها غاضبة من كلماته، وغروره. فرمقها بعينيه بإعجاب شديد:
-إيه رأيك فيا؟
-بعدين تعرف عن إذنك.
غادرت الغرفة، واتجهت لمجلس الأسرتين، وجلست بجوار آثار، فتبعها وجلس على كرسي بجوار والد أمينة. رمقها طوال باقي المقابلة. مر الوقت بطيئا ومملا. وحين انتهت الزيارة. تبادل الأهل كلمات الوداع، وقبل أن يغادر عمرو التفت إلى أمينة. تأملها سريعًا من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها. ثم رحل. ما إن غادروا أسرعت أمينة إلى غرفتها.
في صباح اليوم التالي خرجت من غرفتها كان أبوها يتناول الفطور فجلست على أحد كراسي المائدة فقالت لأبيها:
-أنا مش موافقة.
قال، وهو يضع في فمه لقمة عيش منغمسة بالفول:
-هتتعودي.
-يا بابا مش عوزاه!
التفت إليها بنظرة تعرفها جيدًا ما قبل العاصفة:
-عايزة تتجوزى مين؟ أحمد؟
أسكتتها تلك الجملة. ما إذا قررت استمرار الجدال سيثور أبيها، وفي النهاية هي الخاسرة الأكبر. أخرجها من الزيجة وأبيها انشغالها بمريضها الذي لا تعرف عنه شيئا. هاتفها بحوزة أبيها، ولا تجرؤ على الخروج من المنزل.

أكلها القلق والتوتر، والخوف. ليمر أسبوع آخر، ويوافق أبوها على الخطبة بشكل رسمي. أصبحت خطيبة عمرو، وزوجة مستقبل أسود سيجمعهما تحت سقف واحد. ليلاعبها القدر إما أن تعتاده، أو تَحبس في زنزانته إلى خروج الروح من الجسد.

زيارة مريضها جعلت منها شخصا يملك بعضا من الروح، والمشاعر. لتفيق على قرار أبيها.

(. . . . .)

لم ينتبني أي شعور. كمن مورس عليه السحر الأسود فأصبح أداة لفعل ما خططت له. جلست على سريري في غرفتي التي سأرحل عنها الليلة. بعد أن انتهيت من ارتداء بذلتي السوداء، جلست أفكر. لمَ فعلت ذلك؟ لمَ أتزوج من آية؟

أفعلت كل هذا من أجل تأنيب ضميري لأجل أفعالي؟ إم إني أردت معاقبة نفسي بإرغامي على الهروب من طيف مَريم. أردت أن أثبت لها أني لن أنتظرها، وفعلت كما فعلت هي. سرقني التفكير من عرسي إلى أن طرق عمي على باب الغرفة ليستعجلني.

*****

وقفت أمام صالون التجميل النسائي. لتخرج آية كأميرة حقًا في فستانها الأبيض، وحجاب أبيض براق أضاف إلى وجهها نورا. فأصبحت متوهجة بوجه رقيق خجل من كونه وجه العروس. اتجهنا بعد ذلك إلى حفل الزفاف، بدأت المراسم سريعًا. فالتف أصحابي حولي، وجذبوني للرقص معهم. لهذا اليوم فرحة. من الجيد أن تكون عريسا، حتى، وإن كانت العروس من لم تحلم بقضاء ذلك اليوم بصحبتها. لكن لليوم سعادة مختلفة تستحق أن يطلقوا عليها ليلة العمر. اقتربت من آية لففت ذراعي حول خصرها، وهي لفت أصابعها الرقيقة حول رقبتي. لم اقترب من أي امرأة إلى هذا الحد. سوى وقت نذالتي مع آية. لم تنظر لي طوال الرقصة شعرت أنها تبغضني. فكرهت تلك الرقصة، وشغلني سؤال محير. علامَ يضحك العروسان أثناء

تلك الرقصة؟ علامَ يضحكان بشدة طوال تلك الدقائق؟ ما الحديث المرح الذي يصيبهم بتلك السعادة التي لم تصبنا؟ لكن جيد أن تحتضن شخصا ما. خاصة إذا كان ذلك الشخص امرأة، وتلك المرأة زوجتك التي لم تخترها بعد. انتهى الزفاف. فانطلقنا إلى شقتنا. كانت آية مقتضبة طوال فترة ركوبنا بالسيارة. لنصل منزلنا، فانصرف الجميع، وبقينا أنا، وآية بمفردنا. ما إن أصبحنا بمفردنا أسرعت آية إلى غرفة النوم، وأغلقت باب الغرفة بالمفتاح. أما أنا فراودني ما يراود أي رجل في تلك الليلة.

(آية)

ما الذي جاء بي إلى هذا المكان؟ لم فعلت هذا؟ يا لحمقي تزوجت من لم يترك وسيلة لإهانتي إلا وفعلها. لازلت أذكر جل كلماته التي قالها لي. أذكر خداعه، وكذبه، وأنانيته، فما الذي جعلني أوافق حين حاولت أمي إقناعي بالموافقة. أخشى أن أكون أردت الانتقام منه فانتقمت من نفسي. حاول الاعتداء عليّ سابقا فجئت إليه ليفعل ما أراده بزواجي منه. فجاءها صوت آسر من الخارج، فانتفضت هرعة إلى آخر الغرفة خوفًا من دخوله. لكنه لم يحاول حتى فتح الباب. تحدث من الخارج.

-أنا مش عاجبني الأكل بتاع العرسان دا. أنا هطلب بيتزا أجيبلك معايا؟

لم تجب فقال مازحًا:

-شكلك عاوزة بيتزا. عايزاها إيه؟

قالت بصوت خفيض لم يسمعه:

-أى حاجة. مش عايزة حاجة منك.

فناداها من جديد:

-هجيبلك على زوقي.

لتجد آية نفسها تبتسم على كلماته. أيقنت في تلك اللحظة أنها تزوجته فقط لأنها أحبته فلم تستطع رفض الزواج منه رغم كل ما ارتكب في حقها. خلعت فستانها، وارتدت منامة فضفاضة بأكمام طويلة، وغطت شعرها بحجاب. ليعلو صوت آسر لينادي مرة أخرى:

-آية. البيتزا جات. يلا اخرجي.

ناداها مرارًا، ولم تخرج، وبعد دقائق خرجت أخرجها الشعور بالجوع لم تأكل منذ يومين. فتحت الباب، ونظرت حولها. تخشاه بدقة. فظهر أمامها. خشيت أن يقترب منها، لكنه اقترب. أزاحها برفق من أمام باب الغرفة بلين، ودخل وأغلق الباب، وصاح من الداخل:

-هاتي أطباق، ومية من التلاجة على ما أغير هدومي.

اندهشت من جرأته. لكن لم تحرك ساكنًا، ففتح الباب، ونظر لها مرارًا:

-يا بنتي اتحركي. الأكل هيسقع!

(أمينة)

حان وقت زيارة خطيبها المدعو عمرو، قابلته بوجه عابس، مد يده ليصافحها. فقالت:

-مبسلمش على رجالة.

ثم جلست على مسافة بعيدة عنه، فقال بابتسامة:

-أنا مش رجالة.

-والله دي حاجة انت أدرى بيها.

استاء من كلماتها، فقالت:

-أنا مقصدش.

-ولا يهمك.

مد يده لها بعلبة صغيرة، وفتحها أمامها، بداخل العلبة سلسلة صغيرة مكتوب عليها: أمينة، كان ذوقه رفيعا، ولكنها لم تبدِ إعجابها بها، ولم تمد يدها لتأخذها، وقالت:

-مش هينفع آخدها.

فقال باندهاش:

-ليه؟ أنا خطيبك.

-علشان مش وقتها. مفيش مناسبة ليها.

-إنك وافقتي إنك تتجوزيني دي مناسبة.

أرادت إخباره أنها أجبرت على الموافقة، ولكنها صمتت. فقالت:

-لما يبقى في حاجة رسمي ابقى هاديني.

-ما احنا هنعمل خطوبتنا قريب، بس مش دا الموضوع
نظر لها آمرا:
- اقبليها.
فقالت:
-لا. مش هقبلها.
-انتي عنيدة أوي.
-انت اللي متحكم زيادة.
وضع هديته بجيبه، وجلس عابس الوجه، ودقائق قليلة، ورحل. فكرت أنها عاملته بصورة سيئة، ولكنها ترفض الزواج منه، فلمَ تعامله بلين؟!

(. . . . .)

أحضرت أنا الأطباق بعد أن بدلت ثيابي. أما آية، فكانت جالسة على الأريكة. ضامة قدميها إلى بعضهما، وعاقدة ذراعيها حول صدرها. أتخشاني إلى هذا الحد، وضعت الأطباق، والفطائر على المنضدة أمام آية، ولألطف الأجواء أشعلت التلفاز على فيلم رومانسي. لم أكن ممن يحبون هذا النوع من الأفلام، لكني شاهدت هذا الفيلم من أجلها هي، لا بد أنها تحب تلك الأفلام كنساء العالم. جلست على نفس الأريكة، مبتعدًا عنها بمسافة كافية حتى لا أثير خوفها أو قلقها. بدأت في تناول فطيرتي، وهي جالسة على نفس الوضع. فابتسمت لها.

-انتي مكسوفة تاكلي؟

لم تجب رمقتني بعدم اهتمام. ثم نظرت إلى التلفاز. مر الوقت، وانتهيت من طعامي، وهي على نفس حالتها. فصببت لها بعض الماء من الزجاجة في الكوب، ومددت يدي لها بالكوب.

-اشربي دي مية. مش حاجة أصفرة.

كنت أمزح، ولكنها رمقتني بعينيها كسهام اخترقتني. فجعلت قلبي متألما. ثم قالت:

-طب اللي بيعملوا حاجة أصفرة دول بيتكسفوا. فبيعملوا دا في الدرا. لكن انت خمس سنين بتضحك في وشي. بتقولي كلام حلو، وبعد خمس سنين زهقت فسيبتني، وانت عارف بعدين إيه حصل.

قالت كلماتها، وأسرعت إلى غرفة النوم. أخجلتني كلماتها، وأغضبني أنها

تزوجتني. لمَ لم ترفض؟ أردت إخراجها عنوة من تلك الغرفة، أن تناقشني. تسبني أو تصفعني، لكني لا أملك تبريرا إن سألتني عن الأسباب لكل ما مضى. أردت الانتقام من اللعينة فانتقمت من نفسي عن طريق آية. لن أغفر لي محاولتي للاعتداء عليها. لن يفيد الندم، يجب أن أجعلها تغفر لي. يبدو أنها تزوجتني لسبب آخر، غير أنها قبلت بي لأنها تحبني.

بعد وقت كافٍ لتكون أهدأ، حملت فطيرتها، ووضعتها أمام باب الغرفة المغلق. طرقت على الباب بخفة، حتى لا أزعجها. فلم تجب فحدثتها:

-آية. أنا حطيتلك البيتزا قدام الباب افتحي خديها. انتي عندك حق، بس أنا بتكسف يا آية. اتكسفت من اللي عملته معاكي، وبتكسف من نفسي لما بشوف بصتك. بتكسف لما بحس بكرهك.

قلت كلماتي، ثم عدت إلى الأريكة بعد وقت ليس بقصير. سمعت صوت أزيز باب يفتح، لم أنظر إليها. أغمضت عيني حتى تعرف أني نائم، فتتحرك كيفما أرادت دون خوفًا مني. لكنها بعد ثوانٍ أغلقت الباب، لم أستطع النوم تلك الليله. لم أكن أنوي الاقتراب منها، ولن أفعل إلا إذا أرادت هي، وسمحت لي بذلك. لكني حاولت الوصول بعقلي لحل لهذا الوضع. لم يكن ما دار بيننا مبشرا بأن علاقة جيدة ستجمع بيننا.

*****

في الصباح استيقظت على صوت آية.

-قوم يا آسر. أمي، وجوزها بيخبطوا. قوم.

قلت بصوت ناعس:

-لسة بدري أوي.

رمقتني بعدم رضا عما أقول:

-ماهوش بدري، ولا حاجة. الساعة داخلة على تلاتة العصر.
أسرعت إلى دورة المياه لأغسل وجهي بالماء، واستقبلت آية عائلتها، عاملتني بود أمامهم. أردت شكرهم على قدومهم لزيارتنا. حين ضيافتهم بتقديم أكواب من المياة الغازية. أمسكت عنها الصينية فلامست أصابعها دون عمد، كادت أن ترمي الصينية، وضغطت على أسنانها من غيظها، لكنها ابتسمت أمامهم، ثم جلست أردت استغلال الموقف، فقلت لها:
-معلش يا آية. ممكن كوباية مياه لو سمحتي.
-حاضر.
قالتها بضيق، ثم أحضرت كوب الماء، ولم تجلس على الكرسي التي جلست عليه سابقًا. جلست على الأريكة لتبتعد عني، وبعد قليل افتعلت قيامي لإحضار شيء ما، وجلست بجوارها. كانت تبتسم، وتحدثهم لكني أعلم أنها تشتاط غيظًا مني. لم أكن أريد إزعاجها. قصدت أن تقبل بوجودي داخل عالمها، كما أدخلتها عالمي، وأخرجت طيف مَريم غير راضٍ عن هجره.

(آثار)

لم تعرف إلى الآن ما يتوجب عليها فعله. فقد تركت عمرها يضيع كحبات عقد منفرط، ولن تترك عقد حياة أمينة ينفرط أيضا . تنتظر أن تجد سبيلا للخلاص. لعلها تقاوم استسلامها، فتنجو ببقايا عمر كتبت سطوره خالية إلا من وجع يتزايد باستمرار، ونظرة تائهة جعلت قلبها يدرك الحب منذ سنوات. مضت هاربة.

(أمينة)

مر أسبوع منذ زيارة عمرو الثانية، ازدادت ضيقًا بهذا الحبس، لكن مريضها أجبرها على الانشغال بحاله، ليفتح الباب أبوها دون استئذان كما اعتاد. لعله يظن أنه إذا فتح الباب فجأة، قد يراها بالجرم المشهود. ففتح الباب دون استئذان. كانت جالسة على سريرها تفكر فرمى لها هاتفها قائلًا:

-خطيبك عاوز يكلمك، لو مكنش هو مكنتش همسكك الموبايل تاني. بس هقوله خدته منك ليه؟

قالها ثم خرج. يعتقد أن طريقته في جلدها بتلك الكلمات قد تجبرها في النهاية على الخضوع لما يقرره هو. أمسكت هاتفها كغارق وجد النجاة. كان مغلق فأعادت تشغيله فوصلتها رسالة بعد دقائق قليلة من رقم مجهول كان محتواها:

أنا صابرين الممرضة يا أمينة.

خفق قلبها، ونهشها القلق. اتصلت على رقم صابرين التي أرسلت إليها منه الرسالة. فأجابتها المرأة ذات الكلمات التي تفقدك آمالك قائلة:

-الهاتف المطلوب مغلق يرجى الاتصال في وقت لاحق-.

لو تعلم تلك المرأة أن كلماتها عدد القلوب، والنفوس المتعبة التي أهلكتها. بقتل جل الأمال بسماع ما نتنظره، وأتوق لقوله.

ساور أمينة الظن بأن الأجهزة قد رفعت عن مريضها، وأن الممرضة صابرين أرسلت تلك الرسالة لتعلمها بمصيره. حزنت للتفكير بأنه رحل دون أن تودعه، أو تحدثه عما أرادت. اتصلت مرارًا فكان الهاتف مغلقا. تبًا لهذا

الحظ لما أرسلت الرسالة إن كانت ستغلق هاتفها! ألا تعرف أن كلماتها ستجعل أمينة قلقة! مرت الساعات، وهي تتصل فتجد الهاتف مغلقا. فقاطع محاولتها اتصال من رقم مجهول آخر لتجيب على الفور لعل المتصلة الممرضة صابرين. فقالت بصوت مثقل خوفا من أن تسمع ما لا تتمنى حدوثه.

-ألو.

ليأتي صوته:

-ازيك يا حبيبي؟

فرحت لعلمها أن المتصلة ليست صابرين، لكنها ضاقت من أن المتصل عمرو.

-إيه يا حبيبي. روحتي فين؟

-أنا تمام.

فقال بدلال ذكوري بغيض:

-وأنا تمام علشان كلمتك.

-الله يخليك.

-الله يخليني. طيب. بتعملي إيه؟

أجابت بصوت متعب:

-مبعملش حاجة.

-مال صوتك. مين مضايقك؟

-محدش. جربت يبقا عندك أمل في حاجة، وتخاف يطلع أملك دا ضاع. أو راح؟

قال مازحًا:

-أنا لو أمل عملت فيا كدا، هسيبها، واستنى حد تاني.

لو كانت تعيش ظرفا آخر لعلها ضحكت ساخرة علي هذا التعليق السخيف. لكنها لا تحتمل أي مزاح فالتزمت الصمت متمنية من الله أن تنتهي تلك المكالمة لتستطيع محاولة الاتصال برقم صابرين.

-روحتي فين؟

-مروحتش يا عمرو. انت كنت متصل لسبب؟

-اه. الصراحة بحلم بيكي.

تنهدت لتخرج بعضا من الحزن، والقلق مما بداخلها. فانفرطت دمعة لتريحها قليلًا. لكنه أكمل حديثه فحاولت أن تكتم صوت أنفاسها الباكية حتى لا يصل أي منها إلا أذنيه.

-كنت بحلم إن يوم فرحنا، وبعدين بقيت أنا وانتي لوحدنا، كنت بلعب في شعرك، ونزلت من شعرك على كتفك فقربت من وشك.

صمت ثوانٍ ثم أكمل:

- انتي شعرك عامل ازاي؟ المهم كنتي حلوة أوي في الحلم. متزعليش إني بوستك. . في الحلم مانتي مراتي. . في الحلم.

صاحت بغضب:

-إيه اللي قولته دا. اسكت!

ثم أنهت المكالمة، فعاود الاتصال بها لما يقرب من عشر مرات، فلم تجيب. هاتفت صابرين دون جدوى. لتصلها رسالة أخرى من عمرو:

عايز أخرج معاكي يا حبيبي المؤدب. أنا استئذنت عمي بس اتفقوا على الميعاد سوا، وبلغوني.

لو أنها بوضع آخر ما كانت لتقبل بمغادرة منزلها برفقة شخص كهذا، ولكن رفقته تعد فرصتها الوحيدة المتاحة للاطمئنان على مريضها. تمنت أن يقرر أبوها الميعاد سريعًا، لتعلم حاله، وتعرف مصيره.

(. . . . . .)

لم تغادر آية الغرفة إلا حينما زارتنا أمي في اليوم الثالث بعد زفافنا. لم تكن قد زارتنا أمي قبل، لم تكن تريد إزعاجنا. جلبت لنا أمي معها طعاما لعشائنا. فاندهشت من تعامل آية مع أمي بطريقة جيدة، فأصرت آية على أمي أن تتناول العشاء معنا. فلم تجد أمي مهرب بعد إلحاح آية فوافقت. شعرت بأن رسام ما بالجوار يرسم لوحة تعبر عن اكتمال صورة عائلتي الصغيرة، مع ترك جزء خالٍ داخل اللوحة. جزء ترك فارغا لأبي، وجزء آخر بقلبي الغائب عن تلك العائلة الصغيرة، منتمٍ في غيابه لعائلة لن تكون له يومًا. لاحظت أمي الفتور في علاقتي أنا وآية. كنا نجلس متباعدين، ولا نتبادل سوى كلمات قليلة تفي بالغرض. . فابتسمت أمي في وجه آية بخبث امرأة.

-انتوا عاملين إيه؟

أجابتها آية ببراءة، وابتسامة:

- احنا! الحمدلله تمام.

لم تفهم آية مغزى سؤال أمي، لكني فهمت سؤالها جيدًا. فابتسمت، ونظرت لآية حتى تفهم أمي أننا سعداء. مرت الزيارة سريعًا. وعند باب الشقة وقفت أنا وآية لنودع أمي، فلففت ذراعي حول خصر آية، وضممتها إليّ. لم تغضب أمام أمي ابتسمت، وما إن رحلت أمي حتى أزاحت آية ذراعي بغضب، وأسرعت إلى غرفة النوم، وأغلقت الباب.

*****

مرت عشرة أيام على زواجنا، وآية حبيسة تلك الغرفة، وأنا حر طليق في باقي المنزل. نجتمع فقط حين يزورنا إحدى المعارف أو الأقارب، والأصحاب. فلم أحتمل هذا الوضع كثيرًا، فقررت الهروب إلى العمل لأمنحها بعض الوقت، لتتصرف بحرية في المنزل.

*****

عدت من عملي فدققت الباب حتى تفتح هي. ففتحت لي الباب، وأسرعت إلى الداخل. كان الطعام معدا على المائدة. أسرعت إلى الغرفة فلحقتها. وقفت حائلا ما بينها وبين تلك الغرفة التي تتكون من سرير، ودولاب، وأريكة صغيرة، ومساحة ليست شاسعة باقية، فلا أعلم كيف تمضي بداخلها أغلب وقتها فقالت بوجة عابس دون النظر لي:

-ممكن تبعد؟

-لا.

قلتها ثم أمسكت يدها، وسحبتها إلى المائدة، أجلستها على كرسي، وجلست على كرسي بجوارها. وضعت أمامها الطعام، وقلت حتى لا تسيء الظن:

-مينفعش آكل لوحدي وانتي اللي عاملة الأ كل. .

وأكملت ضاحكا:

- ولا حطالي سم؟

حاولت أن تخبئ ابتسامتها، لكني لمحتها. فأضفت:

-هناكل، وبعدين نشيل الأكل سوا، ونعمل شاي، ونقعد نعمل أي حاجة.

رمقتني فأردفت لأرفع الحرج:

- نتكلم مع بعض نتفرج على التلفزيون. أي حاجة. كبني آدمين عايشين سوا.

لم تجب تناولت طعامها سريعًا، وتعتلي وجهها نظرة ضيق، ثم حملت صحنها إلى المطبخ، فحملت أنا باقي الصحون إلى المطبخ. أعددت كوبين من الشاي، ووضعتهما أمام التلفاز. شربت كوبها سريعا ثم قالت كطفلة متمردة:

-هو دا اللي كنت عاوزه؟ عن إذنك.

لم تمنحني فرصة لأضيف تعليقا. أسرعت إلى غرفتها، وأغلقت الباب، فساورني أنها خشيت أن أطالبها بما هو أكثر، منتهزا قبولها تناول الطعام معي. لم تكن الأيام تحمل لنا ما يسر، لكن المفاجآت حدثت تباعًا.

المجهول

ليس القدر هو المجهول الوحيد. فبالقلب أحاسيس، وبالعقل أفكار نلحظها بغتة

(. . . . . .)

أشعر بطيف مَريم يتملكني، لا أملك سوى الاختيار ما بين أن اترك طيف مَريم الملعونة يلعن قلبي فيمتلكه، أو أسمح لطيف آية أن يشغلني. فاخترت الخيار الثاني. عدت من العمل وجدت آية في المطبخ. دخلت إليها كانت تقطع طماطم بالسكين. فقلت:

-عاوز أتكلم معاكي.

أجابت دون أن تنظر لي، واستمرت بالتقطيع:

-مش فاضية.

أطفأت البوتاجاز، وأخذت منها السكين، وأمسكتها من يدها. وسحبتها للخارج أجلستها على الأريكة، وجلست بجوارها. حاولت سحب يديها، لكني لم أمهلها فرصة. فقالت:

-سيب إيدي!

-لما أخلص كلامي هسيب إيدك. .

-لو سمحت يا آسر سيب إيدي!

-أول مرة تناديني باسمي من يوم ما اتجوزنا. كنت فاكرك نسيتيه.

حَاولت بكل ما بداخلها أن تسحب يدها، لكني لم أدعها تهرب.

-أنا لازم أكلمك. لازم مشاكلنا تنتهي. هحكيلك كل حاجة.

أمسكت كفيها بيدي، ووضعتهم على ركبتي، ونظرت بعينيها لتلحظ صدقي، وتطمئن.

- كنت بحب واحدة اسمها مريم كانت معانا. في الجامعة. كلية تجارة.

انتي وقفتي معاها مرة. عرفتها صدفة قبل ما أعرف إنك بتحبيني. عارف كنت أناني، وزي كل الرجالة، ونسيتك لسنين، وضيعتلك عمرك، وقلبك، وكل حاجة. وهي عملت معايا نفس اللي عملته معاكي.

رمقتني معاتبة بحزن:

-والمفروض أعمل إيه؟

-سامحيني. ادي فرصة يمكن أعرف أردلك حقك، يمكن تسامحيني. أما اللي حصل لما حاولت. . .

صمت للحظة خجلًا.

- أنا آسف. معنديش مبرر غير إني كنت حيوان. عاقبتك على اللي هي عملته. عمري ما حاولت أأذيكي. ضميري كان بيدبحني كل يوم، وأنا بخدعك. أنا آسف. .

نطقت بصوت متألم:

-اتجوزتني ليه؟

-علشان كان لازم أتجوزك. مش هلاقي أحسن منك تبقى مراتي، وآمن على نفسي معاها.

رمقتني بعينيها كمن تعرف إجابة سؤالها التالي:

-لازم ليه؟ حبتني يا آسر؟

لم أستطع الإجابة، هربت من عينيها. فسحبت يدها فلم أقاومها. قالت، وهي تسرع إلى الغرفة:

-يا ريتك سيبتني في حالي، ومتجوزتنيش.

هرولت إلى الغرفة، وأغلقت الباب. مضى الليل بطيئا. لم أستطع إجابتها، لو أنها سألتني بالسابق. لأجبت بلا دون تردد. ولكني لا أوقن إن لازلت

أحب مَريم، أم إني أحببت آية فأردت خلق جديد بيننا، وإن كنت لا أحبها يكفيني حبها لي. يكفيني اهتمامها. بعد إنهاك عقلي وقلبي وصلتني الإجابة. فأرسلت إليها رسالة قبيل الفجر.
بحبك يا آية. اه حبيتك.

لم أكن أكذب، كل ما في الأمر أني أدركت الآن فقط. لا يشبه حبي لآية حبي لمَريم، لكلاهما حب من نوع مختلف، او لأني أحببت مَريم، وجعلتها من تملك قلبي، فلم أدرك أني أحببت آية. توهمت أني استنزفت، ولم يعد بداخلي ما أمنحه لامرأة أخرى.

(آية)

قتلتني إجابته التي لم ينطقها. كرهت قلبي الذي أرغمني على الاستمرار إلى الآن. كرهت الحب، وضعفي إلى حد قبولي للزواج منه. لم يخطئ حين وصفني بالضعيفة فأنا أضعف من أن أحافظ على كرامتي، أضعف من أن أدير دفة قلبي. سحقًا لحبي.

جاءتني رسالته قبيل الفجر. كنت أغط في نومي، دائمًا ما كان النوم ملاذي حينما يعتصرني الحزن. رأيتها في الصباح. لم تغير شيئا تلك الرسالة. لم أصدقها، كان السكين غرس، وبدأت دماء القلب تسيل. فزادت رسالته من حدة ألمي. أشعرتني رسالته بأني يرثى لحالي. أشفق على قلبي العليل برسالة. كتبها بما يملك من جرأة، ليكتب حروفا خالية من الصدق.

لم أغادر الغرفة إلا حينما تأكدت من مغادرته المنزل، وذهابه للعمل. انتهيت من أعمال المنزل، ثم مررت بوالدة آسر. دائما ما كانت بلسما شافيا، لا تسألني عن شيء ولا تتدخل فيما لا يعنيها. تحدثني عما يشغل جميع النساء من أمور النميمة، التي لا أرفضها. لكن سرقني عقلي من أحاديثها. أردت الوصول لقرار لا أريد أن تستمر المعاناة لوقت أطول. عشت عمري مع زوج أم، وهربت منه لأعيش مع زوج لم يرني حبيبته يومًا.

-مالك في حاجة؟ آسر مزعلك؟

أخرجني سؤالها من شرودي. فأجبت بابتسامة:

-لا. أنا اللي زعلانة من غير سبب.

-يمكن هرمونات حمل.

-لا. ما. . .
-ما إيه؟
-ما. مفيش حمل. أنا مش حامل.
ابتسمت في وجهي بحنو:
-متزعليش بكرة تحملي.
-أنا هطلع علشان آسر لما يرجع.

*****

لم يكن هناك داعٍ من المجاراة في هذا الحديث. خشيت أن تختلف طريقتها معي إذا شعرت بما يدور بيننا، او أن تحزن إذا علمت بما فعله ابنها بفتاة بائسة تسمى أمينة تسكن منزله. عدت شقتي أعددت الغداء. حين عاد من عمله تناولت الطعام معه. ظل يحدثني عن أشياء لا تعنيني. فلم أتفاعل معه، ولم أستطع مضغ الطعام فتظاهرت بأني أستمتع بالطعام، وأني بأحسن حال.
قد اكتفيت من عطفه. من انتظاره، ولن أبادر مرة أخرى، ولن يرضيني جواب عابر. عندما يعشقني سأشعر. لم تعد تكفيني مجرد دقات قلب. لن يحتمل قلبي سوى أن يُعشق.

(آثار)

جلست بالشرفة قبل عودة زوجها، وأمينة حبيسة غرفتها. لا تعلم ما يدور داخل عقل ابنتها، لكن شيئا ما أكبر من أمر الخطبة، حول أمينة للشرود أغلب الوقت ما الذي أسكت ابنتها التي لم ترث من أبيها سوى جزء من عصبيته، وعجرفته.

. عاد بها الزمن إلى السنة الأولى من زواجها. عاد أهلها إلى الإسماعيلية بعد شهور قليلة من زواجها، وكأن القدر جاء بهم إلى القاهرة حتى تتزوج من هذا الزوج. ثم يعودوا أدراجهم لبلدهم الأصل، ويتركوها هي لتواجه هذا المصير.

فأرادت السفر لزيارتهم بالإسماعيلية، وقضاء أيام قليلة معهم. رفض زوجها السفر معها متحججا بعمله، فسافرت لزيارة أهلي بمفردي، لكني عدت سريعًا، حتى لا يعتاد زوجي على غيابي، خاصة أنه سبق له الزواج قبلي. لم تكن عصبيته بالأمر الشاق، فقد اعتدت على الانصياع.

فتحت الباب بمفتاحي أردت أن أرتب المنزل قبيل عودته من الدوام، حتى يشعر باختلاف المنزل عقب عودتي. سمعت همسات، وضحكات صادرة من غرفة أصبحت لأمينة الآن. فتحت باب الغرفة فإذا بزوجي في السرير مع أخرى. كنت أخجل من رؤيته عاريا، وهو لم يخجل من ارتكاب فعل كهذا بمنزلي. لم أثُر، ولم أضربه أو أضربها، اكتفيت بهرولتي إلى الإسماعيلية. حاول إرجاعي مرات عديدة، فكنت أقابل محاولاته بالرفض. لكني علمت بأني حُبلى بعلي ابني، فألح أهلي عليّ أن أعود، فخضعت لضغطهم، وعدت

للمنزل. سرعًا ما عادت الحياة بنفس الطريقة. لكني اختلفت تركت كل المشاعر المرحة بالإسماعيلية، وعدت القاهرة خالية إلا من جسد يستطيع تدبير أعمال المنزل، وقبول دور الزوجة حينما يريد زوجي، وهو بدوره لم يكن متطلبًا لا يريد مشاعري أو عقلي. يريد جسدي فقط. فمرت الأيام، وأصبحت ما أراده هو. لم أعرف إن كان حاول خيانتي مرة أخرى، لكني أشعر أنه فعل. تقتل الخيانة مشاعر أي امرأة، لأنها لا تخبرها سوى بأنها لديها نقص بأنوثتها. وأنها لم تكن لم تقضِ عمرها بجواره سوى إداة إمتاع. أهملها، وذهب لأخرى. لكني لم أعد أهتم كثيرا ليفعل ما أراد.

*****

خرجت أمينة من غرفتها وجدت آثار بالشرفة شاردة. اقتربت منها، وضعت يدها على كتفها. فالتفتت آثار مذعورة.

-خضيتيني!

نظرت أمينة من الشرفة على الشارع بنَفس مثقلة، وبيدها الهاتف منتظرة أي جديد.

(. . . . . .)

مضى شهر على زواجنا. لم تغفر لي بعد. . .
لازالت تتهرب مني، ولم أحاول الاقتراب منها أو مضايقتها، ولو بكلمة.
حاولت إذابة ما بيننا. فرتبت مع أمي أن تصحب آية لشراء أغراض من الخارج. فاستجابت أمي، وصحبت آية للخارج. غادرت المنزل متظاهرًا أني ذاهب للعمل، لكني انتظرت إلى أن أخبرتني أمي أنهما غادرتا المنزل.
رتبت الأجواء لأفاجئها. فاختبئت حين دخلت آية الشقة، وبيدها بطاقة كتبت بداخله

ادي للنور فرصة يفتح قلبنا.
آسر اللي ملكته آية

كانت فَرحة كطفلة حين وقعت عيناها على المنزل المزين، والشموع المضاءة في كعكة مرور شهر على زواجنا. حاولت إخفاء سرورها حين رأتني. فوقفت أمامها، وركعت على ركبتي، وقلت:
-بحبك
صدقتني فابتسمت. فضحتها عيناها، واتسعت بسمتها. لم تنطق فأردفت:
-بقولك بحبك. آية.
خجلت فأسرعت إلى غرفتها، لم تستطع فتح الباب. كنت قد أغلقته بالمفتاح.
-تعالي. مش هديكي المفتاح غير لما تيجي نقعد شوية زي أي بني أدمين

عايشين مع بعض.
اقتربت، وجلست بعيدًا عني. ظلت صامتة. كانت غاضبة من شدة خجلها. أشعلت التلفاز. تركت لها حق اختيار ما نشاهده. لم تطفئ شموع الكعك، ولم تبادر بالنطق. لكني اكتفيت بابتسامتها، وتمضية الوقت أمام التلفاز بصحبتها.
لأفيق بالصباح فأجدنا نائمين على نفس الأريكة. كنت ممددا على الأريكة، وآية نائمة مسندة الرأس على صدري. شعرت لوهلة أنها مسؤلة مني حقًا. أخشى ألا أحافظ عليها. خفت أن أوقظها فلم أتحرك، لم أكن أعرف لمَ تمتلئ الأفلام بمشاهد تجمع رجل وامرأة متعانقين، ويستند أحدهم على صدر الآخر. لكني أعرف الآن. شعور ممتع يشبه تعانق الأرواح. كنشوة درويش فاض به العشق فأصبح كالسكير.
استيقظت آية من صوت ضحكي. انتبهت لوضعها. فهرولت إلى الغرفة. فقذفت لها بالمَفتاح، قد أحببت تلك اللعبة الدائرة بيننا.
-خدي مفتاح الأوضة اللي بتهربيلها دايمًا.

(أمينة)

أتعبها الانتظار، والهاتف المغلق، والخطبة، وأبيها. كل الأمور تزيد من اختناقها. ليرن هاتفها باتصال جديد من عمرو. لم تجب فوصلتها رسالة منه.

-ردي يا منمن عاوز أكلمك.

بعد دقائق اتصل فأجابت:

-ألو.

-إيه يا حبيبي. لازم أفضل أتصل كتير علشان تردي.

-ببقا مش فاضية.

-أبوكي قالي هنخرج مع بعض كمان أسبوع.

أجابت بعقل أثقله الانتظار:

-كويس.

- اصبري، وهنخرج وقت ما احنا عاوزين. تحبي نروح فين؟

-معرفش.

-تيجي نروح المقطم؟

أجابت بانفعال:

- انت قليل الأدب!

-دماغك راحت لحاجات. متخافيش.

قالت باستهزاء:

-هخاف من إيه يا. . دكتور عمرو.
ضحك بغرور:
-نعم يا حبيبي المؤدب. أنا عمرو بس.
-أنا لازم أقفل.
قال بضيق:
-انتي مش مهتمة بيا ليه؟ في إيه؟
-مفيش. لما أقابلك نبقا نتكلم. أنا لازم أقفل فعلًا. سلام.

ازدادت الأيام قسوة، ستجبر على الانتظار لأيام أخرى، لو أن صابرين تجيب. أو تستطيع الاطمئنان عليه سريعًا. لا تملك سوى الانتظار، وخلق فرصة لزيارته ذاك اليوم.

(. . . . .)

أصبحت أضحك حين تبتسم. أنتظر العودة للمنزل لإكمال لعبة الهروب. لكنها لم تعد تهرب سريعًا، كالسابق. أصبحت على طبيعتها. تقتصر تحفظاتها على محاولة منعي من الاقتراب من غرفة النوم. وجهها البشوش فتح أبواب الرزق، أوشكت على الانتهاء من اللمسات الأخيرة لمكتب الهندسة الخاص بي، مكتبي الأول. فسمح لي عم أمين بعدم الذهاب للورشة حتى أستطيع الاهتمام بمكتبي. فانتهى دوري في تجهيزات المكتب سريعًا اليوم. فقررت العودة إلى المنزل، لم أمر على أمي. تزورها آية في هذا الوقت كل نهار، فأردت أن أستحم قبيل صعودها. حتى أستطيع إحضار ثيابي من غرفة النوم التي احتلتها آية، ورمتني خارجها. دخلت الشقة فلم أسمع صوتا. فتأكدت من أنها بالأسفل. دخلت غرفة النوم اخترت ملابسي، لكني أردت تجربة الجلوس على سريري الذي لم أغفُ عَليه إلى الآن. لأجد آية أمامي لا ترتدي سوى منشفة ملفوفة حول جسدها بشعر مبلل. نظرت لي باستحياء.

-انت إيه جابك هنا؟

سمعت دقات قلبها المتسارعة. لم أشعر بي إلا وأنا أضمها لي، وأغلق باب الغرفة.

(الممرضة صابرين)

لم تملك الجرأة على المرور من أمام تلك الغرفة، منذ سنوات لم تمر من هذا العنبر دائمًا ما توزع عملها في هذا العنبر إلى إحدى زميلاتها. فاقت من شرودهاعلى صوت هدى.

-سبحان الله احنا في زمن المعجزات. والنبي الواد دا أمه بتحبه أوي، ودعياله.

-واد مين!

-اللي فاق.

-اه. أمه شكلها دعياله أوي.

-بس هو لسه بيفوق، وينام.

-اه. بس مفيش حاجة تقلق. ربنا يشفيه.

-أنا هقوم أشوف ورايا إيه قبل ما آخدلي كلمتين.

لم تعد كالسابق. خرج قلبها وعقلها عن السيطرة أصبحت ذكرياتها تسرد طوال الوقت داخل عقلها. فيذيب قلبها الحزن كحديد صدئ.

يشبه طقس اليوم نفس الطقس منذ سنوات. لم تكن تَحتسي مسحوق الكاكاو منذ عهد مضى. لكن رغبة ملحة جعلتها تطلبه بمقهى المشفى. لتريح عينيها من رؤية مآسي مرضى فقراء، وأطباء تعلموا ألا يتقنوا عملهم سوى لأغنياء القاهرة. أسندت رأسها على زجاج النافذة المغلق بجوارها ارتشفت رشفة من مسحوق الكاكاو. ذكرتها رائحته بجارها الذي لم تنسَه،

ولم تحسن تناسيه. لتعود لذاك اليوم حين أخبرها أنه أحبها لسنوات. صدمت بالبداية، ثم جلست بجواره، وبكت بشدة. تهدجت أنفاسها كطفلة من بكائها الشديد. وبدأت في البوح.

حكت عن طليقها، وحبها الأول. كانت بالسادسة عشرة من عمرها، وهو بالرابعة والعشرين. كان يسكن بنفس الحارة، كانت تمضي يومها خلف النافذة تنتظر رؤيته. حين يذهب لعمله، كان موظفا بإحدى الهيئات الحكومية. دائمًا ما اعتقدت أنه أعلى قدرًا منها لإتمامه تعليمه، ووظيفته، وهي فلم تكمل تعليمها. قد اكتفى والداها بتعليمها إلى المرحلة الإعدادية. ليأتي يوم سعدها. كان يوم الجمعه بعد أداء الصلاة. فعاد والدها من المسجد، ومعه والد حبها الأول. قد زارهما ليخطبها لابنه.

وافق والداها سريعًا دون سؤالها، لكن الأمر لم يزعجها، فقد تمت خطبتها لحبيبها التي حلمت به لسنوات. عاملها بود، وحب شديد. فكانت ملكة منحها قلبها تاج السعادة. أحببته بعنف. أحببته لدرجة رفض التفكير في ألا يقترن اسمي باسمه. ليأتي يوم الزفاف، وقد اعتليت قصر أحلامي. لكنه كان أشبه بآلة هدم قاسية، هدمت كل ما شيدته لسنوات. كانت تلك الليلة، ليلة إعلان قلبها العصيان على هذا الحب. تاركًا داخلها بذور أحزان رويت بكثافة.

(. . . . . .)

تحولت حياتنا لقصة مريحة، وإن كانت آية ليست البطلة الوحيدة، ولكنها أصبحت الأهم. حفظت تفاصيلها الدقيقة عن ظهر قلب. إن كانت ليست حبيبة القلب الأولى، لكنه يحترم ما يشعر به تجاهها، ويحترم ضرورة وجود مكان لها داخله. جرت الأمور جيدًا، ومكتبي الجديد خطا خطوات نحو النجاح، فقررت استغلالها للعمل عملت معي ما فائدة سعيها حتى أتزوجها فلا تعمل. تقاربنا كثيرًا. أصبحت تجمعنا أحاديث شيقة، أقرأها ككتاب فتح لتوه. سارت حياتنا جيدًا ما بين عملنا، وسهرات سمر بشقة والدتي، أسعدتني أسرتي الصغيرة.

ليأتي يوم الجمعة. فتركت آية تعد الغداء، وطرقت باب أمي لتناول الطعام معنا. طرقت على الباب كثيرًا فلم تجب. حاولت فتح الباب إلى أن استطعت كسره. لأجد أمي نائمة على سريرها. حاولت إيقاظها فلم تجب، ظننت أن السكري قد أرهقها، ففقدت الوعي. أسرعنا أنا، وآية بحملها للمشفى.

ليخرج الطبيب، وينظر لي بوجه خالٍ من التعابير قائلًا:

-البقية في حياتكم.

نظن أن المال هام فنحزن لخسارته. تشبهنا منازلنا فنحسنها باستمرار لتعبر عنا، لا ندرك أن الخسارة الحقيقية هي خسارة بشر. أرواح، ضحكات، كلمات، مواقف، أحلام، أسرار. أقدام كانت تسير، وعين تبكي، وتضحك، ثم لا شيء. سنوات عابرة من قلوب تحترق شوقًا. أصابتني أوجاع الفقد إلى الآن. لم أحتمل شوقي المتجدد لأبي، لترحل أمي أيضًا. لو أننا نعلم

برحيلهم، لعانقناهم عناقا طويلا يشبعنا من عبيرهم لسنوات.
بعد أيام صمت، وعبوس لا إرادي. جلست آية بجواري، عانقتني فاجتاحني دفء مشاعرها.
-سيرتها حلوة، وأعمالها حلوة. هنفضل نجيب سيرتها، وسيرة أبوك، وأبويا. هنترحم عليهم دايمًا. هو بس الفراق صعب.
فتحت كلماتها الباب لبكائي فضمتني أكثر، وبكيت وانتحبت. حاولت آية تعويضي عن الأحبة الراحلين، لم تستطع، ولكنها فعلت ما بوسعها. أغنتني آية عن باقي البشر. ليمر عام على موت أمي سريعًا، اعتدت رحيلها كما اعتدت رحيل أبي. لكني لازلت أشتاقهم. ليمر شهران آخران. فتسبقني آية للمكتب، وأمر أنا على الورشة لأزور عم أمين، ثم عدت المكتب. كانت آية جالسة على أحد الكراسي، بوجه شاحب. خفت عليها، فقلت بلهفة:
-لازم نروح لدكتور.
-مش لازم. لا.
فانفعلت من خوفي:
-مش لازم ازاي. لازم طبعًا.
لتتحول ملامحها إلى ابتسامة واسعة.
-أنا حامل.
روادتني مشاعر جديدة. خوف، وسرور، وحب. مشاعر مختلفة تجتاحك أهمها انتظار فرد جديد، تخشى أن يصيبه مكروه منذ علومك بقدومه. تنظر ملامحه، ضحكاته، عناق براءته. رائحته. لحظات ما قبل الميلاد.
كنت قد أيقنت أن حياتي رسمها فنان ماهر بحب، ليأتي الاتصال الملعون، وأعجز عن الصمود. فتهدم أسوار مقاومتي.

(أمينة)

ارتدت ثيابها، وأسرعت حتى تستطيع الخروج من المنزل، لكنها لم تستطع الهروب من أبيها، لم يسمح لها بالخروج، إلا حينما حضر عمرو وصحبها لمقهى. كانت صامتة، لم تستطع الهروب للمشفى. لم تعرف كيف حاله. منذ فترة لم تزره، ولكن عقلها لا يكف عن تذكيرها بوعدها أن تداوم على زيارته إلى أن يفيق.

- مالك. ساكته ليه؟

- مش ساكتة؟

- تشربي إيه؟

-مش عاوزة.

-أطلبلك إيه؟

-مياه كويس.

قام بطلب عصير ليمون لها، وقهوة لأجله. ثم قال مازحًا:

-اهو دكتور، ومبيحافظش على صحته.

-علشان القهوة. القهوة مفيدة جدًا. منشطة، مشكلتها بتبدأ لو زودت عن أربع فناجين في اليوم فالحالة دي بتقصر العمر، وبتتعب القلب غير كدا مفيدة جدًا.

-لا. ده حب بقا.

-إيه اللي حب؟

-اللي انتي بتقوليه. عرفت أختار لما أحتاج استشارة هبقا أسألك. مفكرتيش

تدخلي طب؟
-لا. مبعرفش أمسك مشرط، وأشوف دم، وناس بتموت كل يوم، وأضحك كأن دا كله عادي.
-سنة الحياة الموت، والأعمار بيد الله.
ذكرتها كلماته بحديث صابرين فقالت بانفعال:
-والمرضى اللي ملهومش ذنب؟ اللي بتقف حياتهم على أجهزة، فبتشوفوهم حالة، وشوية أسلاك. وبتسيبوهم يموتوا؟
-أنا دكتور أسنان، وأكيد بيبقا الأمل في علاج المريض دا مش موجود.
قاطع حديثهم النادل، وضع أمامها العصير، وأمامه فنجان القهوة، فارتشف رشفة من الفنجان، ثم أعاده إلى الطاولة، وقال باسمًا:
-سكوتك حلو.
لم تعلق، ولم ترفع عينيها لتنظر له، صمتت فأكمل هو:
-مقولتيليش. شايفة نفسك فين كمان عشر سنين؟
قالها ثم ضحك، فابتسمت ابتسامة صفراء لترضيه. تمنت أن يرن هاتفها ليعلن وقوع مصيبة تجعلها تهرول للخارج.
-انتي مبتبصليش ليه؟
-ببص أهو. انت عمرك ندمت على حاجة؟
أجاب بعجرفة:
-لا. حياتي تمام. اللي عايزني أنا موجود، واللي ببعد عنه هو الخسران.
-وانت مبتخسرش. مخسرتش ولا مرة؟
-يعني. بس مفيش حاجة تستاهل. وظيفتي كويسة. مرتاح. ولو على الحب فانتي هتعوضيني.

-عندك حق.
-عارفة، وأنا صغير كان ليا واحد صاحبي. كنت بحبه جدًا. مرة اتخانقنا علشان بنت خاصمته فترة. بس هو كان مهم.
انقطع صوته عنها، شاهدته كفيلم صامت. انقطع عنها جل ما يحيط بها. راقبت تعبيرات وجهه. إنسان بوجه بلاستيك. تعابير مرسومة يصطنعها، كلمات أعاد صياغتها سابقًا. تمنت لو أن كارثة تضرب هذا المكان فتخرجها منه، لو أن الأرض تنشق فتبتلعها داخلها رأفة بحالها.
تحدث كثيرا فكانت تبتسم دون أن تسمع ما ينطق به، فإذا به يلامس أصابع يدها. فسحبت يدها، ورمقته بغضب.
-انت خرجت معايا علشان كدا؟
-لا طبعًا. بس احنا مخطوبين، وعادى أمسك إيدك. قولي بقا إني مش فارق معاكي.
-يلا نروح
-أنا آسف. هنمشي بس نتمشا شوية.
أرادت أمينة انهاء تلك الليله سريعًا. فغادرا المقهى. حضر المقهى نقاشتهم. كما سجل جدالات، ومشحنات آسر وفتياته، وحضر مقابلات مَريم، وزوجها، وضحكات أخرى بتفاصيل، وأحاديث جديدة ستحدث مع زبائن جدد.

*****

(. . . . . .)

جاءني اتصال من رقم مجهول، لكني أعرفه جيدًا. ترددت لكني أجبت:
-ألو.
لأسمع صوتها لم يعد كالسابق زاهيا ومبتسما. أصبح أقل حيوية.
-ازيك يا آسر؟ أنا مَريم.
-أنا تمام. وانتي؟
تحول صوتها لشجن لم أسمعه بنبرتها يومًا.
-الحمد لله.
تنهدت ثم أكملت:
- أنا عاوزة أقابلك.
اجتاحني شوقًا عارم فألجمته.
-مش هينفع. أنا. .
قاطعتني قائلة:
-عارفة إنك متجوز آية. عاوز أتكلم معاك، وبس.

انتهت الكالمة بموعد للقائنا بمقهى لقاءاتنا المعتادة. حنين طيفها راودني بقوة. لم يتوقف عقلي عن تذكر كل ما دار بيننا، ويزعجني السؤال من جديد. لمَ خانتني بهذا الشكل؟
قابلتها في المقهى بقلب يرتجف، وعقل يقر بخيانتي. كانت اكتسبت القليل من الوزن فزادت جذبيتها بوجه ازداد توردا. ابتسمت في وجهي حين رأتني،

لكن بريقها أطفئ، أم إن عيني هي التي لم تعد مسحورة برؤيتها كالسابق. جلست أمامها أحاول ألا أغوص في النظر إليها، فأغرق في بحرها، وأغرق آية معي. فقالت:

-ازيك؟ مبروك المكتب.

-الله يبارك فيكي.

-عارف سيبتك ليه؟

-أنا كنت فاكرك عوزاني في حاجة مهمة.

أكملت كأنها لم تسمعني:

-مش علشان محبيتكش. أو كان فيك عيب. اخترته هو علشان مضمون، مناسب بفلوس تفتح بيت، وشوية حب هيخلوه يهتم بيا.

-مش فاهم بردة. بتقوليلي دلوقتي ليه؟

-علشان المضمون طلع ضمان خسران، طلع قالب لحاجات متكررة. نفس الكلام كل يوم. نفس كل حاجة. ما عدا الحب.

رمقتها باندهاش، ثم اعتدلت في جلستي، ونظرت لها مبتسمًا:

-عندك حق الحب هو المضمون، وأنا ضمنته.

نظرت بشوق غلبها ممتزج ببعض الندم، أحزنتني نظرتها لكنها أعلنت انتصاري.

-آية مراتي مضمون حلو أوي. طاهر شبهها. أفتكر اللي كنتي عاوزاني علشانه قولتيه.

قلت كلماتي، وغادرت المقهى، المرة الأولى لي أن أغادر مكان بداخله مَريم، لم أعد أهتم بسماع المزيد من حديثها. لكني لم أشفَ بعد. لازال فؤادي يهواها، حين غادرتها جلدني قلبي، وعاقبني بوجع حاد، جعلني أدرك أني

لازلت أهواها. سأغلق تلك الصفحة للأبد. لن أسمح لها أن تسرقني، ملعون طيفها بلعنة سلبتني قلبي. فتوهمت بأن آية سكنته بدلًا منها.

*****

بوحت بما أردت لأرواقي. فتبدلت الأقدار.

(أمينة)

صحبها عمرو لكورنيش النيل، باحت لمياه النيل بما بداخلها. حكت عن مريضها، وعن الوعد التي قطعته على نفسها، وعن الطوق الملفوف حول رقبتها الذي يزداد ضيقًا بمرور الوقت.

انتهت من بوحها فصحبها عمرو لعتبة دارها، بالموعد الذي حدده أبيها. ضاقت لعدم قدرتها على الهروب لزيارة مريضها. فعزمت أمرها، في الصباح انتظرت خروج أبيها للعمل، وغادرت المنزل لم تستطع آثار منعها. ذهبت لتحدد أي مصير قد اختير.

(. . . . . .)

تحولت الأجواء إلى شيء آخر. منذ ما يقرب من يومين، وآية تتجاهلني. لم أحاول الضغط عليها لمعرفة السبب، اعتقدت أن أصابها ما يصيب النساء الحُبلى، فيتبقى على إنجاب طفلي وقت قليل. لكنها تتحشاني بالمنزل، والعمل. أراها شاردة كثيرًا، ومهمومة، لكن الأمر ساء لدرجة أنها تتحاشى النظر لي، يبدو على وجهها الحزن حين تراني، فانتهزت الفرصة أثناء طريقنا للعودة من العمل للمنزل. وسألتها:

-مالك يا حبيبي. إيه زعلك؟

ضحكت بشدة فاندهشت، وانفعلت أردت معرفة ما يضحكها.

-بتضحكي على إيه؟

انتهت من ضحكها ثم تبدل وجهها لحزن شديد.

-عليك، وعلى اللي احنا فيه؟

-احنا مالنا؟ ما احنا زي الفل.

-لما انت بتحبني أمال مَريم قابلتها ليه؟ كتبت عن حبك فيها وسيبت الورقة في بيتي ليه. مخليني جنبك ليه؟

-علشان بحبك.

-كنت ممكن أقول معلش. بس اللي كتبته في الورقة. معناه إنك تعيس من كتر ما بتحبها، ومش عايزة أبقا سبب تعاستك. لو سمحت طلقني.

-مقدرش أطلقك. مقدرش. . نوصل البيت، وهفهمك كل حاجة.

-أنا تعبت، وزهقت. ربنا يسامحك على القرف دا كله.

زدت من سرعة السيارة، أصابتني جملتها الأخيرة، لكني لا أستطيع الابتعاد عنها. كتبت الورقة لأتخلص من آثار مَريم الساكنة بداخلي بتلك الكلمات.
نظرت آية من زجاج السيارة إلى المباني التي تمر سريعًا، ثم بدأت في البكاء.
بكت بشدة. آلمني تسببي بأذيتها إلى هذا الحد. فزدت من السرعة، ونظرت لها محاولًا تهدئتها.
-أنا آسف. مستاهلش عياطك. كفاية عياط.
لم تلتفت لي أكملت بكاءها إلى أن توقفت عن البكاء. لم أتحامل زدت من السرعة. أردت أن نعود المنزل فأرجوها أن تصفح.
لكن القدر لم يمهلني، لتظهر سيارة من العدم لم أستطع تفاديها. لأستعيد وعيي على سرير بالمشفى، وممرضة تقطب جبيني.
-آية فين؟
قالت وقد انتهت من مداوتي:
-آية مين؟
-مراتي اللي كانت معايا.
حاولت الوقوف فمنعتني:
-اهدا. اهدا لو سمحت.
-ههدا بس أطمن عليها!
نظرت لي نظرة رأيتها مرتين سابقًا، ثم قالت:
-المدام آية توُفيت. . . و. . الجنين راح معاها.
لمَ هذا العقاب القاسي، أبلغت أخطائي هذا الحد لأتسبب في مقتل زوجتي، وابني الذي لم ألمسه بعد، ورجل غريب كان يقود السيارة التي ظهرت أمامي لقي حتفه. لأعود أنا معافى إلا من جرح صغير بجبيني.

خارت قواي سريعًا، لم يعد لديّ ما أجاهد لأجله. أصبحت وحيدا. لم تؤذني يومًا لأقتلها، وأعيش أنا. لم ترحل سعيدة. ماتت حزينة. عاقبها القدر لأنها وافقت على الزواج مني. لم أستطع دخول المنزل، عشت بالفنادق، وانهارت تجارتي فخسرت المكتب. ونفذت نقودي فاضطررت إلى العودة للمنزل. لم تمضِ ليلتي في شقتنا كليل بانتظار الفجر. كانت بركانا من عذاب الضمير بداخلي. رأيتها رأيت ليلة الحادث حزنها، وكلماتها. أردت إيقاف هذا العذاب للأبد.

لتنتهي ليلتي بي أقف على سور الشرفة، ودعت الدنيا وحيدًا للأبد. تختلف الحياة من أعلى، وأنت على أعتاب الموت لا تشغلك التفاصيل، جل ما تريده. وسيله للشعور بالراحة، تود لو تجد ما يصل للعقل فيوقفه ليجعل رأسك مجرد كرة ثقيلة تحملها عنقك، وتعيش حالة من الهدوء، والصمت، ودائمًا ما كان الموت أفضل الوسائل، وأسرعها للراحة.

البداية من جديد

ليس كل ما يحمل اسم البداية يعني الأفضل، فهناك بدايات تحمل أقدارا أخرى

(أمينة)

وقفت أمام غرفة العناية، لم تستطع النظر من زجاج الغرفة قررت الدخول، مدت يدها، وأمسكت مقبض الباب فتحت ببطء جعلها تدرك أنها تعيش أصعب لحظات عمرها. دخلت الغرفة، فرفعت عينيها لتجد السرير خاليا من جسد مريضها. تيقنت من أن مريضها فارق الحياة. جلست على بلاط الغرفة مهزومة، لم تمكنها عيناها من البكاء، لكن قلبها انتحب. كان مجهول الهوية، لم تعرف صوته لم تسمعه يتحدث، شعرت وكأن روحها غادرتها مع تركه الحياة.

بعد وقت ليس بالقليل فتح الباب لتدخل الممرضة صابرين وتحمل بين يديها غطاء للسرير ليستقبل المريض الجديد. وقفت أمينة حين رأتها لترحل إلى منزلها، لكن صابرين بادرت بالحديث:

-أنا اتصلت عليكي كتير، وبعت لك رسالة علشان تعرفي إن أنا. . .

-وأنا كلمتك كتير. الموبايل كان مقفول.

قالتها أمينة بعتاب. فكان جواب صابرين:

-الموبايل اتسرق مني فالخط راح برقمك.

هزت أمينة رأسها بابتسامة حزينة، واتجهت لخارج الغرفة.

-انتي جاية لآسر؟

هزت أمينة رأسها نافية، وفتحت الباب لتودع الغرفة والمشفى، فقالت صابرين كمن تعرف حقيقة ما بين أمينة ومريضها:

-انتي نسيتي اسم قريبك اللي كنتي بتزوريه دايمًا. آسر؟

التفتت لها أمينة بفرحة عارمة:
-هو عايش؟ مامتش صح؟
-اه عايش. فاق من يوم ما بعتلك الرسالة. بس لسه عقله بيتظبط بينام كتير، وبيخترف شوية. بس دا طبيعي. هو في أوضة ١٨روحيله.
اتجهت أمينة إلى غرفته الجديدة. فأوقفتها صابرين قائلة:
-هاتي رقمك.
كتبت أمينة الرقم لصابرين، واتجهت لغرفته الجديدة، كانت سعيدة جدًا، وقفت أمام غرفته أرادت فتح الباب لكنها لم تفعل، شعرت بأنه غريب للمرة الأولى.
فتركت المشفى، ورحلت لبيتها، وهي تعلم أنها لن تعيد الكرة مرة أخرة.
ليبدأ هو حياته مع من يعرفهم، وهي لديها حياة لن تشارك في صنعها.

(آسر)

-حرك دراعك.

قام آسر بتحريك ذراعيه، وأصابع يده، شعر بألم خفيف بظهره.

-حرك رجلك اليمين.

حركها آسر قليلًا. فشعر بألم شديد. فقال الطبيب:

-خلاص ريح رجلك. هنعملك بس آشعة بسيطة.

ثم التفت الطبيب إلى الممرضة:

-اديله مسكن خفيف كل سبع ساعات.

قالها الطبيب ثم غادر الغرفة، فاقتربت الممرضة من آسر، لتضع له الدواء بالمحاليل.

-أنا مقولتش يومها حاجة. وكأن الدوا هيسكن بجد.

كانت الممرضة انتهت من دوائه. فالتفتت إليه:

-لما تخرج ابقا روح لدكتور نفسي. علشان دي مستشفى حكومة دكاترتها النفسيين مش قد كدا.

رمقها بعينيه، ولم ينطق فقالت الممرضة:

-أنا مقصدش حاجة. أنا خايفة عليك بس.

نظر لها دون أن يجيب، فغادرت الغرفة. ففتحت كلماتها أبواب الماضي الذي بدأ يعرض ذنوبه، وأخطاءه، كشريط، انتهى به الشريط لمحاولة انتحاره.

حين يقرر شخص الموت، يستحضر العقل كل الأسباب التي تجعلها يتوقف عن هذا الفعل. فيذكرك العقل بالأشخاص، وسبل قضاء حياة أسعد مع من يهمنا أمرهم. لكنه لا يملك سوى نفسه، وعذاب ضمير. فكان من السهل أن يلقي جسده من أعلى السور.

(أمينة)

لم يتوقف عقلها عن ترديد اسمه آسر، ولم تمنعها ليلة خطبتها من التفكير به، وباسمه، جالسة بجوار رجل لم يجمع بينها وبينه قلب، ولا عقل. علاقة جديدة تشبة أجهزة تنفس لا تعمل، ومريض بدأت روحه في مغادرة جسده. تحتم عليها الخروج برفقة عمرو إلى إحدى الأماكن العامة للاحتفال بمحبس وضع في إصبعها لتوه.

جلست أمامه كشخص لم يحضر، وكأن حجابا وضع على قلبها فمنع اختراق أي من مشاعر الفرحة. بعد قليل من الوقت لامس عمرو يدها فسحبت يدها منه، وقالت بغضب:

-إيه اللي بتعمله دا!

-مش اتخطبنا، وبعدين أنا بحبك، ومفيهاش حاجة لما أمسك إيدك. المفروض يبقا في أكتر من كدا بكتير.

-انت بتقول إيه! هو إيه دا مين قال إن لازم يبقا في كدا! خلينا محترمين.

مد يده، لامس كتفها ليهدئها قائلًا:

-أنا آسف.

فزاحت يده بقسوة فانفعل، لكن حافظ على انخفاض صوته حتى لا يلفت انتباه باقي الزبائن:

-انتي مكبرة الموضوع. هو انتي هتفضلي كدا حتى بعدين.

-بقولك إيه. يلا نمشي.

قالتها، ووقفت فقال:

-اقعدي خلاص. ولا انتي خايفة مني.
أجلسها عنادها بعد تلك الجملة. فقال ليهدئ الأجواء:
-انتي بتحبي أبوكي؟
-إيه السؤال دا؟
-أصلي بحسك بتخافي منه. بس عمومًا كل الرجالة طباعهم صعبة حبتين.
-والستات؟
-الست دي حاجة حلوة. اتخلقت علشان تتحمل الراجل.
نظرت بعدم رضا، فقال بغزل:
-وانتي لازم تتحمليني يا حبيبي.
لم تتفاعل معه، شرد عقلها إلى مريضها. حاولت أُذَنهاَ تخيل صوته. وعقلها لم يستطع رؤيته وهو يتحدث، أو شكل عينيه حين يضحك. غلبتها رغبة جارفة أن تذهب لتراه، لتعرف صديقها المجهول. أرادت الإسراع إلى المشفى الآن. لكنها لن تستطيع، لا تملك سوى الانتظار من جديد.

(آسر)

لم يكن استعاد كامل ذاكرته بعد. غاب عنه بعض الأشخاص والمواقف لكنه يذكر جيدًا أمه وأباه، ولم يغفل للحظة أي تفصيلة تخص آية، وهناك صوت اعتادته أذنه. لم يسمعه منذ أن استعاد وعيه، فظن أن عقله هو من أصدر هذا الصوت أثناء نومه، لكنه يشتاق هذا الصوت الأنثوي، يريد أن يسمعه ولو بمنامه.

(آثار)

تناولت قهوتها الصباحية، لتستعد ليوم إجازة زوجها الأسبوعية، لتحتمل شجاراته، وجداله. لتجد أمينة أمامها ترتدي ملابس الخروج، ويظهر عليها الإجهاد. فسائلتها:

-انتي رايحة فين؟

-هتمشى شوية. والنبي يا ماما ما تمنعيني.

-طب وأبوكي؟

-هتعرفي تلقيلي عذر.

-طاب رايحة فين؟

-هقولك لما أرجع.

قالت أمينة كلماتها ثم أغلقت باب الشقة، وذهبت فجلست آثار مكانها. باتت متأكدة من أن تلك الزيجة تعني تعاسة أبدية لأمينة. لن تسمح بأن يكتب على ابنتها ما كتب عليها، دقائق، واستيقظ زوجها. اغتسل ثم عاد وجلس بجوارها. كانت شاردة تفكر بما ستخبره به إن سأل عن أمينة، فنظر لها، وقال بهدوء يختلف عما اعتادت منه:

-مالك؟

-مالي؟!

-وشك مقلوب. إيه مبتحبينيش أصحى؟

التفتت بكامل جسدها تجاه زوجها، وعلى وجهها تراكمات الأعوام. وسألته:

-محدش فينا عارف التاني بيحب إيه، وأهو العمر قرب يخلص.

-لا أنا عارف. انتي بتحبي القهوة حتى شارباها من شوية، وأنا بحبك انتي.
ضحكت على زوجها الذي استيقظ شخصًا آخر، ولكن طريقته لم تسعدها بل أحزنتها. شعرت باختلافه، لكن دون جدوى. قد انتهت فرصة التعديل، فالأشياء التي تأتي متأخرة وإن كانت حسنة لا نشعر بها.

(الممرضة صابرين)

استيقظت من نومها على صوت طرقات، ورنين جرس على بابها. ارتدت ملابسها سريعًا، وغطت رأسها، وفتحت الباب، لتجد صاحب العمارة هو الطارق.

-شقة جارك بقا عليها خمس شهور متأخرين.

-ادِيني كام يوم بس.

-معاكي لبعد بكرة. يا الفلوس، يا سكان ما هيصدقوا، وييجوا يسكنوا.

قال كلماته، وهبط، ثم دخلت شقتها، وأغلقت الباب. وجدت داخل محفظتها أربعمائة جنيهًا، إذا دفعتهم إيجارا لن يكفي سوى لسداد شهر واحد من الإيجار المتأخر.

وكيف ستعيش؟ فكرت أن تبيع بعضا من أثاث منزلها، ولكن لم يبقَ سوى أريكة، تجلس عليها، وطاولة صغيرة تأكل عليها، وسرير في غرفة نومها. لا تملك سوى سلسلة صغيرة، لن تستطيع التفريط فيها، جل ما تستطيع فعله هو أن تذهب إلى عملها. لعلها تجد شخصا تستدين منه، أو تجد سبيلا آخر لدفع دينها، والاحتفاظ بالشقة الأخرى، وأن تترك شقتها لتسكن بشقة جارها.

(أمينة)

وقفت أمام المشفى، فاليوم الجمعة ولا توجد زيارات سوى الرابعة عصرًا، والساعة الآن العاشرة. أتقف بالشارع كل هذه الساعات، أم ترحل؟ قررت أن تحاول اختراع وسيلة للدخول، وألا ترحل، ويكون الله قد أخبرها بتلك الإشارة أن تبتعد عن آسر للأبد.

(آسر)

غادر سريره للمرة الأولى، خرج من غرفته متكئا على الحائط، استند بيديه على السور، وجد في النظر إلى المارين خارج المشفى وسيلة جيدة لانشغال عقله. أمام باب المشفى كان يقف بعض الأشخاص القليلين، وفتاة واقفة يبدو من تحركها بخطوات بطيئة ذهابا، وإيابًا أنها من الأشخاص الذين لا يطيقون الانتظار، فحاول التفكير فيما تنتظره، راقب بعينيه الفتاة، والمارين الآخرين، فلا يستطيع رؤية ملامحهم جيدًا بسبب المسافة ما بين غرفته، وباب المشفى.

سرعان ما ذكرته تلك الوقفة بوقفته على سور شقة أمه، وإلقاء جسده من أعلى.

الأمر لا يتجاوز الثواني ما إن تلقي جسدك إلى أن يرتطم بالأرض، في عمر تلك الرحلة القصيرة ترى حياتك كشريط قصير يجمع أهم اللحظات، وأسوأها، شاهد خلال سقوطه أمه، وأباه، وآخر ما رآه حين ارتطم جسده بالأرض منظر آية ودمائها حين فاق بالسيارة في حالة ما بين النوم، والاستيقاظ كانت الدماء شبه تغطيها، آلمه ما أصابها بسببه، كان وجع ارتطام جسده بالماء قوي لحد الشعور بأن جزءا منك ينفصل، وعظامك تكسر، فأصبح في تلك اللحظة جريح جسد وعقل وروح.

أصابت آسر رجفة خفيفة، زادت معها حدة ألم قدمه، وظهره. كاد يسقط على الأرض فلم تحمله قدمه، فاستند على السور، والحائط باليد الأخرى. رأى الأشخاص خارج المشفى، والسيارات أشكال ضئيلة مضببة الرؤية. فعاد لغرفته.

(أمينة)

انتهت المهلة التي حددتها، ولم تجد سبيلا لدخول المشفى لم يسمح لها الأمن بالدخول إلا بموعد الزيارة المحدد، فهمت الإشارة فأمسكت الهاتف تأكدت من أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة، فوضعت هاتفها بحقيبة يدها، واستدارت باتجاه الشارع لتعود أدراجها، لكن الممرضة صابرين ظهرت أمامها مبتسمة اقتربت منها، وصافحتها قائلة:

-ازيك؟

-تمام. أنا معرفش اسمك.

-أمينة.

-حلو اسمك. كنتي جاية لآسر؟

-اه.

-تعالي هدخلك.

استطاعت صابرين إدخال أمينة دون عناء، كانت صابرين مبتسمة لكن بسمتها لم تخفِ حزنها. لمَ لا يبكي البشر حين يحزنون؟ لمَ لا يصرخون ويبكون؟ أو يقولون ما يريدون قوله لأي كان؟ لمَ نغلف أحزاننا بابتسامة كاذبة؟ توقف المصعد الكهربائي، غادرت صابرين المصعد وتبعتها أمينة. أشارت صابرين لأمينة على غرفة آسر. اتجهت أمينة بخطوات بطيئة إلى غرفة آسر، ما إن وصلت إلى الغرفة خلعت محبس خطبتها ووضعته في حقيبتها، لم تعرف سببا لفعلتها، ولكنها أرادت ذلك ففعلت. دقت على الباب بأصابع يدها فجاءها صوته من الداخل، ذكرها صوته بأمواج البحر

التي لم تسمعها عن قرب إلى الآن. قال:
-ادخل.
تملكها الارتباك، خفق قلبها فأرادت العودة من حيث أتت. لكن الباب فُتح. نظر لها، وكأنه يحاول تذكرها خشي أن تكون تعرفه وتناساها. رمقها بشدة، فتلعثمت ثم أخرجت حروفها بصوت خفيض، وارتباك شديد.
-أنا. . . أمينة.
لم يعرفها بعد لكنه يعرف صوتها، نظر لها هز رأسه بإيماءة ترحاب.
نظرت هي للأرض لم تستطع النظر لعينيه أكثر. تظهر في عينيه شتاتة، لكن نظرته حميمية لحد تشعر بالأمان. فقالت بارتباك وخجل:
-أنا كنت جاية لقريبتي. باين دي مش أوضتها.
استدارت لتغادر الغرفة، فوقف أمامها بخطوات بطيئة بقدمه المتألمة.
رأت في نظرته تلك المرة، وكأنها أمله الوحيد، أخبرها بنظرته أنها آخر أطواق النجاة، وقال بصوت شارد كعقل صاحبه:
-انتي تعرفيني يا أمينة؟
هربت من عينيه، وقالت بصوت يريد الهروب. قالت بصدق:
-لا. معرفكش.
قالتها، وغادرت الغرفة، أما هو فجمد بمكانه. يعرف صوتها لا بد أنها تعرفه لكن لمَ تهربت منه؟ أأصابتها لعنة الاقتراب منه هي الأخرى؟
ما إن دخلت أمينة المصعد الكهربائي لم تتماسك أكثر، جلست على أرض المصعد، وبكت عيناها من شدة خفق قلبها.

(الممرضة صابرين)

لم تعد غرف المشفى كالسابق، أصبحت خالية مرضاها الأحياء يشبهون الموتى، وكأن الموت يحدثهم عبر الهواء قائلا ‹لا شيء للحياة فكل السبل نهايتها الموت›.

لكن غرفة٣١٩ جذبتني أردت تذكر جاري بداخلها. لم أمر من أمامها حتى منذ سنوات. تشعرني تلك الغرفة بأن العالم خالٍ إلا منه، فهربت منها ومنه لسنوات. ولكني ها أنا الآن بداخلها، وأجلس على سريرها، وكأن حين فرغت الغرفة من مرضاها كنت أنا المريضة الأحق بهذا السرير. على هذا السرير بكيت، وبحت عما بداخلي. أذكر تلك الليلة. حين أخبرت جاري عن ذكريات ليلة زفافي من طليقي. أذكر جيدًا ما قلته، وأحفظ معالم وجهه نظراته كل ما بدر عنه.

يوم زفافي قبيل الغروب، كنت أستعد في غرفتي بمنزل أهلي، قرروا أن يتم تجميلي بالمنزل فلم أعترض. سمعت أصواتا كثيرة تأتي من خارج الغرفة فلم أهتم، لكن الصوت لم يكن صوت أغانٍ أو أحاديث أفراح، كان جدالا تطور لشجار بين أشخاص. فتحت باب غرفتي وخرجت. كان المتجادلون أمي وأبي، ورجل رأيته من قبل. جاء لي مدرستي ذات مرة، وأخبرني أنه صديق أبي، وكان يتأملني.

حين رأوني صمتوا فأدخلتني أمي الغرفة. قالت:

- انتي عروسة مالك ومال كلام الرجالة.

لم أكن يشغلني كثيرًا الدائر بالخارج. كانت فرحتي تكفيني. لكن شيئا

خفيا سيطر على أجواء الحفل. تظهر أماراته على وجه أمي وأبي، وقليلًا ما كان زوجي يشرد، فيبدو عليه الغضب. انتهى الزفاف، ودخلت شقتي للمرة الأولى، لم يكن يجب على العروسة دخول شقتها سوى ليلة الزفاف.

حين مددت قدمي اليمنى في بيتي الجديد شعرت أني امتلكت مملكتي، أصبحت حرة كفاية لأكون من النساء أصحاب القرار الأقوياء كفاية لتحمل المسؤولية. حفظت كل ركن في الشقة بعيني. فرحت بما أحسنه تنظيمه بها، وقررت بعد انتهاء إجازة زوجي أن أعيد ترتيب ما لا يعجبني. أما هو فازداد غضبه منذ بقائنا بمفردنا. اقترب مني فتدللت كعذروات الكون، فابتعدت عنه وخرجت إلى الصالة، فلحقني. جذبني بقوة إلى داخل الغرفة، حاولت دفعه برقة للابتعاد عني، لكنه عاملني بعنف. آلمتني يدي حين ترك ذراعي كان تحول لونه للزرقة قليلًا. فسألته حائرة:

-انت بتعمل كدا ليه؟

رمقني باستهجان ثم قال:

-قوليلي بقا انتي محترمة ولا متفرقيش عن أمك كتير؟

لم أفهم ما قال لم تفعل أمي يومًا ما يشينها، ولم أرَ منها سوءا ليسبني به يوم زفافي فقلت:

-إيه اللي انت بتقوله دا؟!

لم يجب جذبني بعنف مرة أخرى، ولم أستطع مقاومته، ما إن تأكد من أني عذراء قام عني. شعرت بالاشمئزاز للمسه لي، أحسست بأني تعريت أمام رجال الكون أجمع. أحببته لسنوات، وتزوجته، لأكتشف أنه غريب عني أكرهه، وأكره قدري الذي جمعني به. انتظرت الصباح بفارغ الصبر لأسأل أمي عما قيل عنها. لأعرف سبب قوله هذا الكذب؟

(أمينة)

دخلت أمينة المنزل، وتركت قلبها ينتحب بالمشفى، دخلت غرفتها لم يوقفها أبيها، أو يسألها عن خروجها. أخبرته آثار أنها كانت برفقة عمرو. فلم يعلق أو يعترض.

فدخلت غرفتها أغلقت الباب. لم يتوقف عقلها عن التفكير. عرفت اسمه منذ أيام، ورأته منذ أقل من ساعتين. لكنها تريد النظر لعينيه إلى الأبد. هذه هي العينين التي يمكنها الاستيقاظ كل صباح لتنظر لهما فتشعر بالتيه، وتردها نظرته إلى صوابها. تمنت لو أن جمعهم ماضٍ، كان لقاء الأحياء الأول فأسرها.

قاطع دخول آثار سيل الأفكار داخل عقل أمينة

-عمرو برة. قاعد مع أبوكي.

خرجت من الغرفة، ثم تذكرت المحبس فعادت ولبسته. تنفست بقوة لتستمد من الهواء طاقتها ثم خرجت إلى عمرو كان جالسا بجوار أبيها، وآثار بالمطبخ تعد مشروب الضيافة، فجلست أمينة. وكان عمرو يقول:

-معلش يا عمي. مش هتتكرر تاني، أنا خدتها بس علشان كانوا عامليني حفلة صغيرة في المستشفى. فمكنش ينفع أحضرها من غير خطيبتي.

قال كلماته ثم نظر لها بحدة. لم تجد سببا لخلق قصة، كان يستطيع إخبار أبيها أنها لم تكن بصحبته، ولم تحدثه من أيام. ليثبت ضعفها، وأنها الخاطئة وهو الصالح. قال أبوها:

-أنا هقوم أعمل تليفون وأجيلكم.

غادرهم أبيها، فقال بضيق:
-انتي ليه مفهمة أهلك إنك كنتي معايا.
-أنا مقولتش هما اللي فهموا كدا، وليه كدبت ما انت كنت تقدر تقول إني مكنتش معاك.
-علشان ميضايقوكيش، وبعدين أنا خطيبك فالطبيعي لمّا تخرجي تبقي معايا.
-وليه طبيعي يعني؟
-علشان دبلتي في إيدك.
-وانت المفروض تقولي كل حاجة بتعملها.
-لو سألتي هقولك.
-طاب ما انت لو كنت سألت كنت قولتلك.
أصدر صوت طقطقة بفمه وأضاف:
-انتي المفروض تستأذنيني. أنا هبقا جوزك. الطبيعي إن أنا الراجل.
رأت أباها في عمرو فضحكت لأجل القدر السيئ الذي ينتظرها برفقة هذا الرجل. فازداد غيظًا من ضحكها فقال:
-إيه قلة الذوق دي! انتي بتضحكي وأنا بتكلم!
-اه. أنا قليلة الذوق، ومش هينفع نكمل.
-على راحتك.
قال رده وهو بطريقه للخروج من المنزل. ما إن خرج عاد أبوها وسألها:
-هو ماشي مضايق ليه؟
شعرت بالخوف لكن أجابت.
-قلتله مش هتجوزه. أنا مش عاوزاه.

صفعها وقال:
-هو أنا مت بتتكلمي وتقرري انتي! تعالي يا ست آثار شوفي ربايتك.
لم تبك أصابها سرور غريب. لأول مرة تغضبه، لقد نجحت بمضايقته لترد له بعضا من أفعاله. اكتشفت أيضًا أنه جبان لا يقدر على التفكير كعاقل. يثور بسذاجة طفل، فيتحول ليد تبطش بدلًا من عقل يفكر.

(الممرضة صابرين)

طرق أمي وأبي الباب. أسرعت بدلت ملابسي، وفارقت الأرض التي نمت عليها منذ الأمس. خرجت مسرعة قبلت أمي وصافحت أبي، وسحبت أمي من يدها ودخلت بها غرفة النوم، وأغلقت الباب أخبرتها ما قاله، فصمتت ثم نطقت بما لم أرد سماعه يومًا. أخبرتني أنها ربتني لكنها ليست من أنجبتني. أمي الحقيقة أنجبتني بعد ارتكابها الفاحشة مع أبي، وماتت بعد ميلادي مباشرة.

-وبابا مقاليش ليه؟

-ما هو مش أبوكي هو ابن خالة أمك، وأبوكي اللي كان موجود امبارح لما كانوا بيتخانقوا على مين يبقا وكيلك في كتب الكتاب.

-وكان فين كل السنين دي!

-كان في السجن.

لم أستطع التفكير صدمني ما عرفته. أنا ابنة خطيئة، وأبي سجين. حين استعدت رشدي سألتها كيف عرف زوجي بهذا الأمر. فأخبرتني أن إحدى المدعوات جاءت لتشاركها في تجهيزات الزفاف، وحين حدث الشجار لم تستطع إخفاء الأمر عنها، فهي من أخبرته، وبمنتهى الوقاحة أخبرتني أنها نقلت ما حدث إليه، وأنها اندهشت من أنه لا يعرف.

مرت سنة على زواجي، وكرهي له يتضاعف يوميًا. أجبرني على العيش معه أن لا ملجأ لي. لكن حبلي تأخر. فحملني الذنب، وأحسن عقابي لهذا الأمر. فصحبني لطبيب. فطالبه الطبيب بإجراء بعض التحاليل فلم

يقبل، لأنه يرى أنه سليم ولابد أن العيب مني ليس منه. بعد هذا الأمر ازدادت علاقتنا سواء أصبح يضربني على أتفه الأسباب. ليمر عام جديد دون إنجاب. فازداد فظاظة، وتزوج بأخرى لتنجب، فهربت من منزله لمنزل من قاموا بتربيتي، لم أكن مرحبا بي، ولم ألمهم يكفيهم تحملي لسنوات.
فاضطررت إلى العودة لمنزله، لأشارك زوجة أخرى معيشتي. علمت حين عدت أنه يتعالج من أجل الإنجاب. فلم أجد سبب لرفضه القيام بذلك حين كنت زوجته الوحيدة. فكنت خادمة جيدة لزوجته التي لم ترتكب أمها إثمًا يومًا. وأنا لي أم زانية. فحبلت بطفلي وهي لم تحبل بالبداية، لكنها لحقتني وأنا بشهري الرابع. فكانت ترى أن المنزل لا يحتمل زوجتين، فكان يجب التضحية بإحدانا فاختار التضحية بي. لأعود بثيابه من عند المكوجي فيفتح لي الباب، وينهال عليّ ضربا وسبابا. لم أفهم سبب ذلك إلا حين استعدت وعيي بالمشفى، وقد خسرت طفلي. قتله أبوه. أخبروني أن ضرتي قالت لزوجي إني على علاقة بالمكوجي، وهو لم يسأل أو يتأكد، لأني كأمي. طالبته بالطلاق، فطلقني. لم يعد لي ملجأ بحثت عن عمل إلى أن وجدت العمل في المشفى كممرضة، ووجدت مسكنا بجوار جاري. كنت أعمل وأعود منزلي فأغلق بابي هربًا من البشر.
حين انتهيت من سرد قصتي كنت أبكي، فربت على كتفي، وابتسم قائلًا:
-انتي مدتنيش دوا قلبي. حالتي هتتأخر بسببك.
ابتسمت، وكانت آخر دموعي لوقت طويل. ودعت الغرفة وعدت لمنزلي.

(آثار)

تعاد التفاصيل من جديد. أجبرها أبوها على الزواج بزوجها في السابق، ويحدث نفس الأمر مع أمينة. بلاد الشرق تجعل من نساءها هبة، ومجرد شيء يمتلكه أب ثم زوج. جلست بجوار أمينة بعد أن صفعها أبوها. جريئة أمينة، لَو أنها مكانها ما كانت لتَفعل، أخبرت أمينة أنها لن تسمح بإجبارها على شيء ترفضه، فهزت أمينة رأسها بأنها تصدقها، ولكنها تعلم جيدًا أن آثار لا حيلة لها سوى أن تواسي فتاتها الضعيفة. بعد أن اطمأنت آثار على ابنتها انتظرت زوجها إلى أن عاد، كان هادئا، وكأن شيئا لم يحدث. فتبعته لغرفة النوم، فبدل ثيابه، وارتدى ثياب النوم، ثم جلس على السرير ليخلع جواربه، كان يدندن بصوت منخفض. فقال لها:

-هتفضلي بصالي كتير. روحي اعملي العشا.

-مش هعمل حاجة.

أعد مسند رأسه للنوم، وأزاح الغطاء وفرد جسده على السرير، ثم غطا جسده وقال بهدوء:

-أحسن أهو الواحد ينام خفيف. اقفلي الباب واطفي النور، وجهزي لعشا حلو بكرة علشان عمرو وأبوه هيتعشوا عندنا.

-هي مش أمينة قالتله مش هتتجوزه.

-أمينة تقول براحتها. دي بت ناقصة رباية.

-ما بناقص منه ما العرسان كتير.

-أصل انتي فقرية انتي وبنتك.

ورفع رأسه ونظر لها بتحذير قائلًا:
-روحي رتبي للعشا.
أطفأت الإضاءة، وأغلقت الباب.
خمسون عامًا من العجز. قتلوا ما بداخلها من حياة، كانت حالمة أن يأتي اليوم، وتنهي تعليمها، وتعمل مضيفة طيران. فتسافر لأرجاء العالم، كانت تشعر أنها ستقابل حبها صدفة كصدفة لقاء القَطار، ولكنها انتُشلت من كل هذا، ووضعت في هذا البيت مقيدة بأغلال. فوضعت أحلامها داخل صندوق العمر، وانتظرت أن تكبر أمينة ويكبر علي، فيحققوا أحلامها ليكون القدر انتصر لها، ولكن ها هي الآن.
ابنها علي خارج البلاد لا تدري إن كانت ستتمكن من معانقته قبل موتها إم إنه لن يعود إلا ليحمل نعشها يوم وفاتها، وأمينة ستلاقي نفس المصير، ولكنها يجب أن تمنعه من التحكم بمصيرها. أمضت ليلها بجوار النافذة، ذكرتها ليلتها بطفولتها حين كانت تشعر بالسعادة لهطول الأمطار، فتقف خلف زجاج النافذة تنظر لقطرات المياه الساقطة أمامها، كانت قطرات مياه المطر الناعمة، تشبه نعومة قلبها. لم تختلف الأمطار لكن قلبها اختلف، أصبح صلبا لا تخترقه قطرات المياه.

(الممرضة صابرين)

عادت لمسكنها منهكة بعد أن أنهت عملها، لم تجد وسيلة لسداد ديونها لم يبق لها من ذكريات جارها سوى ليلتين. فكرت أن تترك شقتها، وتعيش بشقة جارها، لكن هذا الحل لن يدفع الإيجار المتأخر. أخذت مفتاح شقة جارها، لن تترك هذه الشقة إلا حين يجبرها صاحب العمارة على تركها، فتكون ودعت الشقة وصاحبها. ما إن دبت قدمها بالشقة شعرت بأنها تناجيه، وبأنه يسمعها. فحيته من قلبها بجاري العزيز.

أدخل الآن شقتك الخالية من كل شيء إلا منك، أمضيت عشر سنوات بجوارك، لم أحدثك خلالهم سوى كلمات معدودة. كنت تقابلني صدفة كنت أنظر عابسة في وجهك، كان الزمن أقساني فدخلت تلك الشقة، وقررت أن أكون كما أنا فحسب. امرأة عزباء وحيدة للأبد. طالما راودني شعور بأني سأموت وحيدة، لن أجد إنسانا أودعه بعيني ثم أرحل. ولكنك آنستني بصوت أم كلثوم الصادر من شقتك كل ليلة، يذكرني برائحة طفلي الذي لم أنجبه، كانت أنغام مذياعك تشبه عناق زوجان متحبين، العناق الذي لم أذقه يومًا.

دخلت صابرين غرفة نوم جارها كانت على حالها، دائما ما حافظت على ترتيبها كما كان يفعل، لم تحرك شيئا من مكانه. دست جسدها بين أغطية سريره لتشعر بوجوده، لم تفتح أوراقه المطوية، لم تكن تريد معرفة ما لم يطلعها من أسرار لكنها لا تملك الكثير من الوقت. فبدأت أنفاسها تتلاحق من حزنها المتزايد. ففتحت إحدى أوراقه المطوية كانت الورقة خالية إلا

من سطر:
((قد ملكت القلب فاستوصِ به، فإنه حق على من يملكه))
وفتحت ورقة أخرى كتب بداخلها:
((أحببتك بصمت فزاد الصمت من شوقي))
ملأت دموع صابرين الفارغ من السطور، فعاد بها الحنين لليوم التالي لإخبارها بحبه لها. حين بكت ذلك اليوم، وأخبرته بكل شيء تركته بحجة أن عملها انتهى، وأنها ستعود في الصباح، فودعها بنظرة حب أشبعتها من لذات الدنيا، ولكنها لم تترك المشفى ذلك اليوم. كانت بالخارج تجلس على أحد المقاعد المجاورة لغرفته، لم تخبره أنها تحبه، ولكنها أحبته منذ سكنت بجواره. تعلقت عيناها بنافذته، وشرفته وصوت مذياعه. نست كل ما يصدر عنها. لكنها أجبرت قلبها على عدم الحب، فعاقبها قلبها بإخفاء حبها حتى عنها.
عادت في الصباح، دخلت غرفته، ابتسم حين رآها. طلب منها أن يتناولا الإفطار معًا، فاستجابت.
كانت تقضي الأيام معه، تخرج فقط لتنهي عملها، ثم تعود لتجلس بجواره، لم تضيع ولا ليلة من ليالي طرب المذياع، وفي إحدى المرات دخلت غرفته فلم تجده. بحثت عنه في كل المشفى، ولم تجده. حاولت أن تنهي عملها، ولا تهتم فبالنسبة لها الجميع يرحل، ولا يبقى إلا هي، ووحدتها.
بعد ساعات عاد، دخلت غرفته، فوجدته بالغرفة، لم تستطع التحكم بسلوكها، فما كان منها إلا أن عانقته، وقالت:
-متسيبنيش لوحدى تاني.
عانقها هو الآخر بقوة، ثم ابتعدت عنه. شعرت بالخجل وأدارت وجهها

تجاه الباب من حيائها منه، فمد هو يده، ولف حول رقبتها سلسلة من ذهب، مكتوب عليها.
تشبه الحياة بسمتك.
التفتت له وقلبها يرقص، ثم خرجت من غرفته مسرعة. كانت قد تناست هذه التصرفات الطفولية، ولكنها لا تستطيع التحكم بكل ما يصدر عنها.
لا تستطيع سوى التصرف كما يقرر حبها.
في اليوم التالي اشتاقت إليه جدًا، ولكنها لن تستطيع أن تنظر له بعد أن عانقته. فأدخلت إفطاره وهو بدورة المياه، وبالصينية بجوار الطعام ورقة كتب عليها.
‹إيه مقابل هديتك؟›
كانت صابرين تراقب أخباره من زميلاتها، فكل امرأة تستطيع معرفة ما تريد دون الحاجة لإبداء أسباب. لتخرج زميلتها هدى بيدها ورقة، فمدت يدها لها بالورقة. فتحت الورقة كان بداخلها:
‹مقابل هديتي أشوف جمالك قدام بحر إسكندرية، ويا خوفي البحر يغير›
أخذت كلماته على مَحمل سيئ، خشيت أن يكون يراها امرأة سيئة الأخلاق، فغيرت طريقتها في التعامل معه.

المتاح

لا يمنح الوقت الكثير، سيفاجئك دومًا
لذا استمتع بالمتاح، لعله آخر ما أتيح من السعادة

(أمينة)

لم تغمض عينيها طوال الليل، لم تبدِ محاولتها نفعًا. سيأتي عمرو وأبوه ليحددوا موعدا لخروجها من سجن أبيها لسجن جديد، تفهم أن أباها لا يحبها، ولكن لمَ يصر على زواجها من عمرو خاصةً، وصلتها رسالة في الصباح، كانت من صابرين كان محتوى الرسالة.

((خليكي جنب آسر، ميعرفش غيرك فاقفي جنبه)).

أدهشتها تلك الرسالة، أوضحت الرسالة أن صابرين تعرف من البداية أن أمينة لا تقرب لآسر بصلة، فما الذي جعلها تبعث لها برسالة كتلك. أيبدو على أمينة تعلقها بهذا المريض؟ أم هو من طلب منها أن ترسل الرسالة؟ اجتاحها شوق غريب لرؤيته، خفق قلبها. شيء ما بداخلها ما يحدثها أن تعود وتلازمه، ولا تفارقه أبدًا. فبدلت ثيابها، وذهبت لآسر. دقت على باب غرفته. فسمعت صوته:

-اتفضل.

فتحت الباب كان جالسا على السرير، ما إن رآها حتى وقف. فقالت:

-أنا. . .

ثم صمتت فتمشى إليها قائلًا:

-أمينة.

هزت رأسها بنعم، فاشار لها أن تتبعه فتبعته. كان يبدو عليه الألم، لكنه يحاول أن يتظاهر أنه لا يتألم. صحبها لحديقة المشفى، وأجلسها أمامه على أريكة، نظر لها باهتمام، ازداد خجلها من نظرته، فصمتت، وهو انتظرها

بفارغ الصبر أن تنطق، أراد أن يسمع أي شيء يخصه إلى أن نطقت أخيرًا:
-أنا معرفش انت تعرف إيه عني بس أنا عارفاك.
سمعها بإنصات تام، أراد أن تخبره شيئا يخصه.
-أنا زورتك لشهور. كنت انت في غيبوبة، كنت بحكيلك كل حاجة عني. كنت بفضل أكلمك.
نظر باندهاش، ثم قال:
-انتي جاية تهزري. يعني إيه عرفت صوتك وأنا في الغيبوبة!
ثم وقف. فوقفت أمامه، أشارت له أن يهدأ.
-مبهزرش. أنا عارفاك بس طول غيبوبتك معرفتكش قبلها.
قال بوجه غاضب:
-وجاية ليه؟
نظرت بعيدًا، وقالت بصدق:
-معرفش.
رمقها كالمصدوم، ثم تركها، وصعد لغرفته، وهي جلست على الأريكة.
وقف آسر بشرفة عنبر علاجه، نظر لها. جلست لدقائق، ثم غادرت المشفى.
كان غليظا معها، ولكنه انتظر أن تخبره بأمر يخص شيئا تنساه، لا أن تخبره تلك التفاهات، فليس باليسير أن تخسر كل شيء، وتحاول الخلاص، فيطيل الله عمرك.

*****

في طريقها للعودة للابتعاد عن المشفى، وأمام باب المشفى. اعترض طريقها طفل يجري من أمه. ضربها بيديه الصغيرة بقوة، لم تكن الضربة موجعة، ولكنها أسقطت دموعها. شعرت بخيبة أمل لم تشعر بها رغم كل ما مرت به

سوى الآن. كانت تنتظر مرور السيارات، لتعبر للجانب الآخر من الشارع. فسمعت صوته يناديها فكرت إلا تلتفت، لكنها التفتت. اقترب منها. أظهر لها بطاقته الشخصية، وأشار لها على خانة العنوان.

-ممكن تبقي تيجي معايا؟

كانت ضربات قلبه متسارعة من محاولته اللحاق بها، ويبدو عليه ازدياد الوجع لو كان الوضع مختلفا لأعلنت عليه الحرب، وأندمته على طلب كهذا، لكنه يحتاجها، كما كانت تحتاجه لشهور. هزت رأسها موافقة، ثم عبرت للجهة الأخرى من الشارع. ركبت أتوبيس، ونظرت له بابتسامة إلى أن اختفى من أمامها.

عادت منزلها مضطربة العقل، مشتتة. لتجد ضيوف أبيها أوشكوا على الوصول.

(الممرضة صابرين)

نعيش في بلاد مزدحمة، فلا نرى من حولنا جيدًا بفضل الزحام، فنتحول لقلوب وأرواح مزدحمة كبلادنا. نكيل الناس بمكيال أصم، ونحاسب الأبرياء على فعلات المخطئون. أشعلت صابرين المذياع الذي لم تلمسه منذ سنوات. فأخذها لتيار الذكريات الجارف.

كنت قررت ألا أدخل غرفة جاري من الآن، فمر يومان لم تطأ قدمي الغرفة، كنت أعلم أنه يترقب دخوله غرفته، ولكني لم أفعل. حتى جاء دوري في المناوبة الليلية. فيرن جرس غرفته، ترددت قبل أن أدخل، لأدخل فأجده ينظر نحو الباب بشغف، وكأنه ينتظرني. هرول إليّ جلس على ركبتيه، ومد يده وأمسك يدي، طبع قبلة على كفي قائلًا:

-وحشتيني.

لم أفهم رجل كهذا لمَ لم يتزوج منذ زمن؟ لمَ تركته النساء؟ثم تذكرت غبائي. كان يسكن بجواري لسنوات، ولم ألحظه إلا الآن.

ليمر شهران وحالته تستقر، لكنه يحتاج المتابعة لذلك يمكث بالمشفى، كنت سعيدة ببقائه غير أني أشتاقه حين أعود لبيتي. ليرن هاتفي برقم مجهول فأجد المتصل طبيبا من مشفى آخر. آخبرني أن أبي أراد رؤيتي قبل موته. ذهب معي جاري لتلك المشفى. كانت المرة الثانية الذي يغادر فيها المشفى، المرة الأولى حين اشترى لي السلسلة. دخلت غرفة أبي كان السرير خاليا فأخبرتنا الممرضة أن أبي توفي منذ نصف ساعة، لأول مرة تؤلمني الأسرة حين تخلو من مرضاها. لم أعرفه لم أحدثه، لم نتفاهم أو نتقاسم حوارا أو

نتشاجر، ولكني تألمت لعدم سماعي ما كان يريد قوله. حضر جاري دفن أبي، وقفت أمام المقبرة قرأت له سورة الكهف، ودعوت له، ولكني لم أستطع قول - اللهم ارحم والدي كما ربياني صغيرة- لم يربياني ولم أعرفه كان غريبًا عني.

حزنت، ولكن جاري عوضني. كان يحسن الاستمتاع بالوقت. يجيد الحديث، واللهو. أذكر أنه أخبرني أنه يريدني في أمر هام. فصعد بي لعنبر خالٍ إلا من أسرة قديمة متهالكة. فكان الأمر الهام أنه يرى أني بحاجة للعب. سحب يدي وجرى بسرعة فجاريته. أصابه التعب فلا يحق لمريض قلب أن يبذل مجهودا كهذا. خفت عليه، ولكنه لم يهتم، ضحك، ملأ ضحكنا العنبر المهجور، لعل الأسرة ضحكت أيضًا.

إلى أن جاءني خبر جديد. . .

(آثار)

دخلت أمينة الغرفة، ولم تغادرها. حين حضر عمرو وأبيه، ألحت آثار على أمينة أن تحييهم ثم تعود غرفتها. ففعلت أمينة ثم عادت غرفتها. استرقت السمع لما يقولون تم تحديد الزفاف بعد شهرين من الآن. حين غادروا طالبها زوجها بإطلاق زغرودة ففعلت. لم تتمنَّ أن تطلق زغرودة احتفالًا بتعاسة ابنتها، ولكن هذا ما حدث.

(أمينة)

حين سمعت زغرودة أمها عرفت بأنهم قد رتبوا لكل شيء. يجعل الإجبار كل ما هو جميل إلى قبيح. فتتحول الحياة إلى مجرد زنزانة، والحوائط عبارة عن سياج ضيق يضيق حتى تختنق، فنموت ونحن أحياء.

لأول مرة تتصل بأخيها. هاتفت علي انتظرت إلى أن أجاب بثقل، تغير صوته عن السابق قليلًا، ولكنها عرفته. فقالت:

-علي.

فأجاب هو:

-مين معايا؟

قالت بصوت مثقل:

-أنا أمينة.

غطى بكاؤها على الحروف، فكانت نبرتها باكية حزينة. فقالت:

-بابا. عاوز يجوزني، وأنا مش عاوزة. علي. . . خليه ميجوزنيش يا علي. .

أجابها باهتمام ضئيل، وكأنه يفكر بأمر آخر:

-اهدي بس. بابا عارف مصلحتك أكتر منك يا أمينة.

لم تكن تنتظر تلك الإجابة، فأخفى البكاء تلك المرة صوتها بالكامل، فلم تستطع تجميع الحروف لنطق الكلمات، وإنما صدرت عنها حشرجة بكاء، تقطعت أنفاسها، شعرت بأن الروح ستغادر جسدها. ليقول هو:

-متعيطيش يا أمينة. أنا هكلم بابا. . سلميلي على ماما.

انتهت المكالمة، وهي تعلم أن علي لن يفيدها. مضت ليلة سيئة، انتظرت

النهار لتذهب إلى آسر. لم تضع محبسها، فإذا كان أبوها ألبسها المحبس عنوة، فستضعه أمام أبيها، وتخلعه بعيدًا عنه.
دقت باب غرفة آسر فسمح لها بالدخول، تبادلا الابتسامة، والتحية. ثم قالت:
-يلا علشان نروح العنوان اللي في البطاقة.
قالتها، وانتظرته بالخارج ليبدل ثيابه، ثم ذهبَوا إلى منزله. ما إن وصلوا لشارعه بدأ سيل الذكريات، تذكر خطواته، لهوه مع الأطفال في صغره، أبوه، وعصبية أمه حين يرتكب الأخطاء. ازداد ألم ظهره بشدة. فتوقف. فظهر على أمينة القلق قائلة:
-انت كويس؟
ضَحك ساخرًا من وضعه:
-باين إن الوجع بيلاعبني. بيزيد كل ما أفتكر. يمكن لما أنسى اللي معرفتش أنساه يفارقني الوجع.
صعدت معه لشقة أمه لم يستطع دخول شقته، لم يغلق الباب تركه مفتوحا، تذكر ما صدر عنه حين زارت آية. انتابته عاصفة من الغضب، فضرب بيده إحدى الأكواب الزجاج فكسرت، انتبهت أمينة لثورته، فحاولت تهدئته. فأجلسته على أقرب كرسي ثم أحضرت له كوب ماء. صمت طويلًا، فجلبت كرسي، وجلست بجواره. نظرت له بهدوء، وقالت:
-احكيلي احكي كل حاجة. قول اللي افتكرته، واللي مكنتش عايز تفتكره.
رمقها بحدة، ثم أشار بيده بغضب قائلًا:
-كانت بتمشي هنا. على الكنبة اللي هناك. حاولت أعتدي عليها، ومن الباب دا خرجت مذعورة خايفة مني. وفي السرير اللي جوا أمي ماتت.

ويوم ما صوتي علي على أبويا ومات بعديها كان قاعد في الأوضة اللي بابها وراكي.
لم يكن ما سمعته هينا، لكنها نظرت له ببرود قائلة:
-هي دي غلطاتك بس. إيه فيها يضايق؟
انفعل بشدة من كلماتها، وبدأ يتحرك بخطوات واسعة، ثم عاد وجلس، وبدأ في سرد التفاصيل، حكى عن مَريم، وآية، وليلة الحادثة، ولقائه بمَريم، وخداعه لآية لسنوات. أنصتت بصمت لم تنطق أتاحت له الفرصة، ليفرغ ما بداخله. حين تذكر وجه آية المخضب بالدماء. بدأت دموعه بالتساقط، وقال بحزن شديد:
-أنا قتلت ابني، ومراتي. بس معرفتش أموت.
قالها ثم انهار ببكاء طويل. أصابها الحزن على عجزه. فقالت:
-أخويا سافر هجرة غير شرعية في كتير كانوا معاه، ماتوا بس هو عاش، مش علشان كويس وهما وحشين. بس احنا بنعيش لسبب لما بيخلص السبب بنموت، انت مقتلتهمش دا كان نصيب لو كانت العربية اتأخرت مكنتش الحادثة حصلت؟
هز رأسه نافيًا.
-متقوليش أي كلام.
-انت مش وحش. اتجوزتها هي، رفضت تخونها مع مريم، هي فهمت غلط بس زمانها عارفة إنها ظلمتك.
ضحك بقوة قائلا:
- ظلمتني. هي ظلمتني.

فقالت:

- اه ظلمتك. هو انت الوحش الوحيد في الكون ما كلنا فينا وحش. انت أنضف من ناس كتير. قوم.

سحبته من يده، وصعدت به لشقته، لم تسمح له برفض الدخول. جذبته لغرفة نومه. أخرجت ثياب آية من الدولاب. كانوا كما وضعتهم قبل موتها. كان يشبه طفلا خائفا من العقاب. حاولت وضع الثياب داخل حقيبة. فصاح:

-انتي بتعملي إيه؟ سيبيهم.

-هنوديهم أنا وانت لجمعية خيرية هنودلها الثواب.

لم يعترض جلس على السرير، نظر للملابس تذكرها، حين وضعت فستانا أزرق اللون في الحقيبة، خفق قلبه. فهذا الثوب كانت مرتدياه قبيل نزولها للعمل في اليوم المشؤوم. تخيلها كأنها أمامه. تخيل ابنه الذي لم يولد ثم بكى كطفل بكى بضعف شديد. فعانقته أمينة، لم تفكر في الحرام والعيب شعرت بأنه طفلها الكبير فاحتضنته كأم.

(الممرضة صابرين)

أعادت صابرين ترتيب ثياب جارها. تحسست رائحته بالثياب، وأضاءت أنوار الشقة جميعها، مسحت الغبار عن كتبه. جلست بشرفته، وأشعلت مذياعه، فملأ صوت أم كلثوم صدرها بحب فائض أخفته منذ رحيله. أعادت صياغة ما مرت به منذ ميلادها. أصبحت تعنيها التفاصيل. ترى الأشخاص من دون حجاب الجسد والمظاهر. أصبحت ترى البشر أرواحا، بعضهم داخلهم عامر بقلب سليم، وأرواح معذبة أجهدها الظلم، وأرواح مغلقة خلقت لأذى البشر. أصحاب الإنسانية متعبون على قدر إنسانيتك على قدر ما تحمل من عناء. على صوت الست، وهي تغني:

أهرب من بكرة أروح على فين ليالينا الحلوة في كل مكان

أعيد السرد من جديد.

(أمينة)

جلست بالشرفة، لم تعد تهتم لغضب أبيها، فكرت بطفلها الكبير، الذي عرفته من أيام. أنهكها ما يعانيه، كانت سجلت رقم هاتفه حين وجدوا الهاتف بالشقة، فقررت أن تراسله. فكتبت:

الليل متخلقش علشان نندم على ذنوب بس، اتخلق علشان نلاقي حاجة، نحب نفكر فيها، حاجة نفرح لمُّا تزورنا في حلم».

تمنت أن يقرأها. فرن هاتفها لم يكن آسر المتصل، كان عمرو هو المتصل. لم تريد الرد، لكن إن لم تجب لن تنتهي مرات اتصاله. فأجابت لتفرغ منه إلى التفكير بطفلها الناقم.

-شايفة أنا اللي اتصلت بردة.

-معلش.

-مش مهم. مبروك عليكي أنا.

-الله يبارك فيك.

-انتي إيه مضايقك؟ زعلانة طول الوقت، اوعي تكوني كئيبة.

-أنا كئيبة. دا مضايقك؟

-لا. هبقى أعلمك الفرفشة.

-أنا لازم أقفل.

-اقفلي كلها شهرين ومش هتعرفي تهربي.

-اشمعنا شهرين؟

-هي العروسة آخر من يعلم، هنتجوز كمان شهرين.

لم تودعه. أغلقت الهاتف، وهرولت إلى أبيها لم تجده. كانت آثار أنهت صلاتها، فنظرت لها بغضب.

-لما انتوا مش طايقيني كنتوا بعتوني. أو دفنتوني حية، وانتي ليه ضعيفة كدا؟!

قالت أمينة كلماتها، ثم تركت الغرفة. كان أبوها عاد من الخارج رمقته باستياء، وأسرعت إلى غرفتها. وجدت ثلاث مكالمات فائتة من عمرو، ورسالة من آسر.

قرأتها ‹شكرًا يا أمينة›.

أهذا ما استطاع قوله، لكن يكفيه ما يحمله. أمامها شهران فقط. إن لم تكن ستختار المستقبل فلا بد أن تنعم بالحاضر. أن ينبض قلبها، أن تضحك كثيرًا. فانتظرت الغد لتقابل آسر.

(الممرضة صابرين)

حين رأيت الطبيب عماد مقتضب الوجه، بعد أن رأى أشعة وتحاليل جاري. علمت أن خبرا سيئا ينتظرني. تبعت الطبيب لغرفته، ثم سألته:

-ماله يا دكَتور علاجه هيطول. هيتعب أكتر؟

-أدامه حل واحد يا متبرع بقلب ودول نادرين في مَصر، وهو واضح إنه مش غني. فقدامه مسألة وقت. يا المتبرع بسرعة، يا ربنا معاه.

ألجم لساني الخبر. جلست على كرسي. مر الناس من أمامي ما بين مرضى وأطباء وتمريض، وزوار. فلم ألحظهم. توقف الزمن لبرهة. ليخبرني أني لن أراه لاحقًا. استجمعت قَواي، ثم مررت بجاري العزيز، جلست بجواره. لم أستطع النطق. شعر بأمر هام وراء صمتي، لكنه لم يسألني الحديث. فالتفت إليه باسمه، ثم وضعت ثيابه داخل حقيبة. فقال مندهشًا:

- إيه. هخرج؟

فابتسمت أكثر:

- لا. هنروح اسكندرية. ولا رجعت في كلامك؟

- وشغلك؟

- خدت أجازة. الشغل مش هيطير.

بدت السعادة على وجهه. وفي الليل سألني:

-انتي مش هتروحي؟

-هسهر معاك.

-يا سلام. هو إيه اللي حصل؟

-عاوزة المستشفى كلها تعرف إني بحبك.
ضحك بشدة إلى أن تلألأت بعض الدموع بعينيه من شدة ضحكه، وأنا ابتسمت أيضًا، لكني أردت البكاء على صدره للصباح فحَسب.

*****

قبيل غروب اليوم التالي كنا نجلس على شط الإسكندرية، قام ليتمشى، فلم أصحبه أردت أن أفسح المجال لوجه ليبدو عليه الحزن. حتى أستطيع الضحك في وجهه، فتمشى بمفرده لم يبتعد كثيرًا، وظهر عليه الإرهاق، فهرولت إليه. حين تأكدت منه إرهاق بفضل المجهود والسفر بكيت بشدة، فلم يفهم سبب بكائي الشديد. فقال:
-انتي عارفة إيه الفرق بين قلبي، وقلب حد سليم؟ إن قلبكوا بيقول، دوم دوم، وأنا قلبي بيقول دوم ويسكت، ودوم ويسكت. بس من يوم ما رضيتي عني، وهو بيعزف ألحان.
فضحكت مما قال. فأكمل:
-قلبي تعبك معاه، وبعدين وفري دموعك لما أموت.
أدرت جسدي، ونظرت له بشوق وقلت دون أن أدري:
-بعد الشر عنك. بعد الشر عنك.
كررتَها إلى أن أمسك يدي، واقترب بي من المياه، حاول رميي بالمياه، فرميته أنا بالمياه. استمررنا بتكرارها إلى أن طالت المياه خصري. فخاف أن أمرض، وعاد بي للفندق. صعدنا غرفنا، كان قد قام بحجز غرفتين متلازمتين. ودعته بابتسامة، ودخلت غرفتي، تملك مني الحزن ما إن أصبحت بمفردي. بعد أن هدأت قليلًا اغتسلت، وارتديت ملابسي فدق الباب، فتحت لأجد صندوقا أنيقا، فتحته كان بداخله صندوق المزيكا عبارة عن صندوق على

هيئة مسرح، وعلى المسرح راقصة باليه صغيرة ترقص على أنغام المزيكا التي يصدرها الصندوق ما إن يفتح، ومع الصندوق كارت صغير كتب بداخله.

- شكرًا. بحبك

حملت لعبتها الجديدة، كانت الدمية الصغيرة ترقص على أنغام الموسيقى، ويرقص قلبها حزنًا. جفت دموع عينيها، فبدأ القلب في البكاء.

بعد دقائق رن هاتف غرفتها، كان هو المتصل. قال:

-البسي علشان نتعشى.

لن تضيع الباقي من حياته إلا وهي برفقته، لعل رفقته للنهاية تطفئ أشواق رحيله. فتحت الخزانة، فوجدت فستانا أحمر، ارتدته، وهي تفكر متى قام بشرائه، وهي تلازمه منذ مجيئهم. ما إن دبت قدمها بفندق المطعم نظر لها كالمسحور. لم تكن شديدة الجمال، ولكنها الأجمل في عينيه. ما إن اقتربت أزاح لها الكرسي، وأجلسها، ثم عاد مكانه. كان يزداد لطفًا فتزداد حزنا، نظر لها مبتسمًا، وقال:

-تصدقي انتي حلوة أوي وانتي سرحانة وحزينة.

نظرت له كمن تود حفظ قسمات وجهه.

-انت ليه متجوزتش لدلوقتي؟

-معرفش، قررت متجوزش غير اللي أحبها.

-واشمعنا أنا حبتني؟

-معرفش. يمكن غموضك، وعصبيتك، وتكشيرتك. .

ضحكت فأضاف:

- وضحكتك اللي لسه شايفة قريبة، وحنيتك. انتي فيكي من كل حاجة. الحاجة وعكسها.

صمت ثم قال:
-تتجوزيني؟
لم تستطع إخباره أمر مرضه الشديد، وأيامه المعدودة. فابتسمت دون أن تتكلم، تركته هو يرى بسمتها كيفما أراد. . انتهى العشاء، فودعها عند باب غرفتها، وانتظر أمام غرفته إلى أن دخلت غرفتها.
لم تبدل ثيابها، أرادت أن ترتدي ما قام بشرائه لأجلها قدر المستطاع، وكأن يغطي جسدها عطر من رائحته، وعلى مقربة من منتصف الليل. سمعت صوت أم كلثوم، فأسرعت إلى شرفة غرفتها. كان يجلس أمامها بشرفة غرفته، سحبت كرسيا، وجلست بشرفتها، إلى أن سرقهما الوقت فناما بمكانهما.
مرت أيامهم بالإسكندرية سريعًا، ما بين الطواف بأرجاء الإسكندرية صباحًا، وبعد الظهيرة بحر الإسكندرية، والليل مطاعم الإسكندرية، وعند منتصف الليل أنغام المذياع، والحديث من الشرفة. إلى أن يغلبهم النعاس في مقاعدهم.

(آسر)

حاول الاتصال بكل الأرقام المسجلة على هاتفه الذي وجده بالشقة، حين يجيبوا كان يصمت، وأحيانًا ينطق فيقول:

-أنا آسر.

فتكون إجابتهم:

-آسر مين؟

كان ينهي الاتصال. ليس بحاجة لتذكر أشخاص تناسوه، رقم واحد فرح صاحبه حين علم أن آسر المتصل. كان رقم عم أمين. حين أطلعه آسر على اسمه، ما كان من الرجل الطيب القلب إلا أن قال بفرحة عارمة:

-ازيك يا آسر يا ابني. انت كويس؟

ليس الجميع يساند في الضعف، لكن إنسانا واحدا وفيا يكفي عن باقي البشر. قال عم أمين بصوت دافئ:

-والله من يوم ما سيبت الورشة، ومفيش حاجة زي الأول. عامل إيه يا بني؟

-بخير.

طالب عم أمين من آسر أن يطلعه على اسم المشفى، فأخبره آسر، مر ما يقرب من ساعة، ليجد آسر زائرا بهذا الليل، كان الزائر عم أمين، عانق آسر بقوة حين رآه. جلسو معًا بحديقة المشفى، كان آسر صامتا، وعم أمين يحدثه باستمراره، يحاول التخفيف عنه، ثم قال:

-عارف يا بشمهندس آسر حياتنا دي شبه فنجان قهوة حلو أوي، بس مزاجك

قالك تشربه في طبق الفنجان، فكل ما تيجي تشربه حد يعدي، فتشرب من الفنجان. فتيجي تشرب من الطبق حد تاني يعدي فتشرب من الفنجان، لحد ما ميبقاش حد شايفك تيجي تشرب في الطبق تلاقي القهوة خلصت، وانت يا محظوظ. خلصت فنجانك، فربنا رزقك بفنجان جديد اشربه زي ما انت عايز.

قال ساخرا بحزن:

-محظوظ!

-اه محظوظ. كله نصيب يا بني متتحملش فوق طاقتك.

قال بغضب:

-انتوا بتصقفولي على إيه! على ابني، ومراتي اللي قتلتهم!

-مقتلتهمش. نصيبهم كان كدا، وانت نفسك كنت ممكن تكون ميت دلوقتي بس قدرك تعيش مش علشان تفضل تندم، علشان تكمل حاجة في الدنيا. انت مأذتش حد غير نفسك. في الطيارة اللي وقعت من سنتين كان في ست وجوزها هي مريضة بمرض خطير، وهو باع اللي حيلته علشان يسافر يعالجها، وتم شفاها وراجعين لعيلهم انفجرت الطيارة. هل هما كدا غلطوا إنهم هما الاتنين سعوا للشفا.

لم يجب آسر اكتفى بنظرة توضح اهتمامه. فأضاف عم أمين:

-لو مكنتش اتعالجت كانت هتموت، وكان زمانه قاعد قعدتك يمكن، وزمان اللي يعرفوهم بيقولوا يا ريتها ما اتعالجت. بس في الحالتين هي ميتة، لو كانت آية في البيت كانت هتموت، ولو العربية اتدمرت عليك كنت هتعيش برده.

لم يتفاعل آسر مع عم أمين، ولكنه أنصت جيدًا. انتهت زيارة عم أمين

سريعًا، فربت على كتف آسر قائلًا:
-هونها عليك يا ابني. أنا هجيلك تاني، وهجيبلك كشري معايا.
عاد آسر غرفته وحيد، أمسك هاتفه، واتصل بأمينة أجابت سريعًا، كانت تتحدث بمرح. قال:
-أمينة.
-نعم.
ساد الصمت لمُّا يقرب من خمس دقائق، فقالت:
-آية كانت بتحلم بإيه يا آسر؟
-معرفش.
-وانت كنت بتحلم بإيه؟
-معرفش.
-ما تقولي حاجة فاكرها من وانت صغير موقف.
أطلعها على قصته مع الطفل الذي لقاه بعد شرائه لبس العيد، ونظراته ذاك الطفل، ورغبته بمساعدته. فقالت:
-الحل هنا. ساعد غيرك، معرفش بس. مش انت مهندس ما تساعدهم بده. لو ابنك كان اتولد، مكنش هيحترمك أكتر من إنك تساعد الأطفال دول.
-آه.
قالها آسر دون إرادة منه، فقلقت لأجله.
-مالك. انت كويس؟
-عندى صداع هيفرتك دماغي.
-طاب قول للدكتور.

-هقولهم أكيد. تصبحي على خير.
-شكرًا يا آسر.
-أنا اللي شكرًا.
-تصبح على سعادة.
لا يعرف سببا لآلام عقله، لم يزدد الأمر صعوبة، عن أي حياة يحدثونه، ولكنه بدأ يفكر في مساعدة أناس آخرين، ظل يفكر إلى أن وجد سبيلا لمساعدة الآخرين من خلال ما كان يحبه سابقًا، وهو عمله، فانتظر زيارة أمينة ليطلعها على ما توصل إليه.

(الممرضة صابرين)

مر أسبوعان، وهما بالإسكندرية، لم يتبق على رحيلهم عن مدينة الإسكندرية سوى ليلة واحدة. حاول إسعادها بشتى الطرق، رجل كهذا كيف تجعله امرأة مجرد محطة تمر بها، لتكمل العمر. أرادت مشاركته ما تبقى له من أيام، ولكنها لم تستطع منع قلبها من عشقه. فهو رجل جمع رجولة العالم، فلن تستطيع تقبل أنصاف الرجال. طرق غرفتها ففتحت له، نظرلها بابتسامته المعهودة، وغمز لها بطرف عينه هكذا اعتاد مغازلتها بعينيه.
ثم قال:
-احنا هنرجع مصر بكرة، تحبي تقضى آخر ليلة لنا هنا فين؟
قالت كالمتيمة الحزينة:
-مكان ما تحب.
صمت وكأنه يفكر، ثم نظر لها فأذابتها نظرته.
-على البحر. مستنيكي بعد ساعة.

*****

على شط بحر الإسكندرية، وجدته قام بتجهيز كل شيء، رتب لشواء الأسماك، وأعد مكان لجلوسهم. عاملها كأميرة. تناولا العشاء، لكنها لم تستطع تذوق السمك، تذوقت مرارة غيابه المحتوم. لاحظ شرودها فأمسك يدها، وحاول سحبها للبحر لكنها رفضت، فلم يجبرها، وغاص بالبحر في هذا الظلام الحالك. فصرخت هي لتحذره:

-الدنيا ضلمة، حاسب!
ظلت تصيح لتحذره إلى أن أنهى غوصه، لم يستمر طويلًا، فقلبه لا يحتمل نشاطه الدائم. خرج من المياه، ومسح جسده بالمنشفة، ثم جلس بجوارها. قائلًا:
-كنتي خايفة عليا؟
قالت كمن لم تكن تتنفس.
-كنت مرعوبة. .
نظر لها بوجه مريح. كان هادئا، شديد الهدوء. وقال:
-خايفة عليا من المياه، وأنا قلبي كلها شوية، ويقف.
أرادت البكاء فامتنعت فقالت بقلب يخفق:
-مين قالك كدا؟
-عنيكي.
-عيني كدابة، مش واخدة على السعادة بس. بتحب النكد.
بدا عليها الارتباك. فوقفت وأدارت ظهرها له قائلة:
-هاجي معاك إسكندرية ليه؟ لو دا هيتعبك؟
قالت جملتها، ثم أدارت وجهها له فوجدته يقف أمامها. قال:
-يمكن بتودعيني.
تملكها الحزن والخوف، لن تستطيع الكذب فصمتت، فضحك هو بشدة. فاندهشت من ضحكه. أيضحك لأنه سيفارق الحياة؟ أم يسخر منها؟ توقف عن الضحك، وأردف:
-شكلك حلو وانتي مخضوضة انتي صدقتي؟
تنفست الصعداء، لعدم معرفته أن الموت ينتظره قريبًا، ولكنها تعلم أنها

سافرت للإسكندرية لتوديعه حقًا. فقالت:
-انت خايف؟
جلس بجوارها، ونظر باتجاه البحر، ثم قال بإجابات من داخله:
-معرفش، بس من يوم ما اتولدت، وأنا عارف إني هموت، فكل اللي حسيت إني عايز أعمله عملته. أصل الموت قريب أوي مش بعيد زي ما احنا فاكرين. العمر كله شوية حكاوي مش هتخادلها ساعتين كلام.
قال كلماته، ثم ضمها إليه فأسند رأسها على صدره، فكان عناقه، وأمواج البحر المتضاربة، تكفي ليرسم قلبها لوحة حياتها. مرت دقائق، ثم سحبها من يدها، ووضع يد حول خصرها والأخرى عانقت يدها، وبدأ يلتف بها على الشاطئ. فقالت بضحكة طفولية.
-انت بتعمل إيه؟
-بنرقص.
-وفين المزيكا؟
-مفيش أحلى من البحر وضحكتك مزيكا.

*****

كان صوت الطرق المزعج على الباب كفيل بإخراجها من أجمل لحظات ماضيها. كان صاحب العمارة هو الطارق. سألها ما إن قامت بفتح الباب.
-جمعتي فلوس الأيجار المتأخر؟
-لا. اصبر عليا.
-طيب فضي الشقة علشان السكان الجداد يعاينوها.
-طاب اديني يومين كمان.
نظر بعدم اهتمام، وقال ساخرًا:

-اديتك كتير، إيه هتضربي الأرض تطلع بطيخ المرة دي؟
قال كلماته ثم أدار وجهه، وبدأ يهبط على درجات السَلم، فقالت بصوت عالٍ:
-هجيب سلفة من الشغل.
لم يلتفت لها، قال فحسب، وهو يكمل هبوطه:
-الحكومة مبتسلفش. كان غيرك أشطر.

(أمينة)

انتظرت أمينة آسر إلى أن خرج من غرفة الأشعة. أخبره الطبيب أن سبب الألم بقدمه، وظهره. محاولة سقوطه، وأن الأمر سينتهي بعملية سيجريها قريبًا، وبعد مجموعة من جلسات العلاج الطبيعي، لن يشكو من أي ألم. فقالت:

-والصداع. عرفت سببه؟

-إرهاق، وضغط نفسي شديد.

شرد مرة أخرى، فحاولت مقاطعة شروده قائلة:

-هتفضل ساكت. بتفكر بس.

-لا. . عمي أمين أقنعني أبيع شقة أمي، وأرجع شقتي لصاحب العمارة. كفاية إنه مرماش العفش الشهور اللي فاتت.

-كويس. ابدأ من جديد.

هز رأسه بالاتفاق معها فيما تقول، ثم صمت مرة أخرى، أرهقها صمته، تعلم ما يساور عقله، لكنها تريد أن يبوح، يحكي ما يريد. ينفعل. يسب أو يكسر شيىء ما. فاق من شروده بعد دقائق فسألها:

-انتي ليه تاعبة نفسك معايا كدا؟

-علشان أنا مش تعبانة. بالعكس لقيت حد. أكلمه، وأبقى بعمل حاجة.

شردت فيما ينتظرها، أينبغي أن تنهي علاقتها بآسر الآن، تمر الأيام سريعًا، لا يبقى أمامها سوى شهر، وسيمر سريعًا، وتقف كل ليلة تنظر من النافذة، متمنية أن يمر آسر من أمام منزلها، ستدعو الله أن من يفتح الباب ليدخل

آسر، وليس عمرو. تعلم أن نبتة حزن ستغرس بقلبها حين تطأ بيت عمرو بفستانها الأبيض، وستنمو النبتة إلى حد يحتلها الحزن. لكن يتوجب عليها إخبار آسر بالحقيقة، لكنها لن تستطيع إخباره أنها ستتزوج آخر. فقال:

-أمينة. أمينة.

فاقت من شرودها، فقالت:

-أمممم.

-أنا معرفش عنك حاجة.

لو سألها هذا السؤال منذ شهور قليلة لأخبرته كل شيء. صمتت ثم قالت:

-أنا أمينة واحد وعشرين سنة، داخلة رابعة جامعة، والباقي مش بتاعي.

قال مندهشًا:

-مش بتاعك ازاي؟

امتزج الحزن والضعف بنظرتها:

-مختارتهوش يا آسر.

آلمته نظرتها، شعر بأنه يريد حمايتها، لكن كيف وهو عاجز، لا يعرف أي سبيل يسلك، لو باحت لساعدها قدر استطاعته، لكنها لم تبح بشيء.

انتهى الوقت المسموح به للزيارة، فتوجب عليها الرحيل. تبعها لخارج المشفى. اقتربت سيارة أجرة. فأشار للسيارة. فوقفت. سألها:

-أنا ينفع أوصلك؟

هزت رأسها بلا، ففهم أن بحياتها الكثير من المتاعب التي تحاول أن تخفيها، ففتح لها باب السيارة، ودعت أمينة آسر بابتسامة، ما إن ابتعدت السيارة أصاب آسر ألم شديد برأسه.

(الممرضة صابرين)

أغلق حديث صاحب العمارة أبواب الأمل، وفتح أبواب ماضيها على مصراعيها. فقد تشابه الوضع حين دق بابها قبل سنوات. كانت عادت شقتها لتغير ثيابها، كان النوم قد جفاها منذ أيام، لكن جسدها المنهك خذلها، فجعلها تغط في النوم كما لم تنم عمرها. فأيقظها خبط الباب بقوة، كانت أعطت المشفى رقم صاحب الكشك ليتصلوا بها من خلاله في الأمور الهامة، حتى يخبرها هو، فقد تفقد هاتفها أو ألا تسمعه. كان الخبط شديدا، فاستيقظت من ميتتها الصغرى مذعورة، ارتجف قلبها خوفًا، خشيت على حبيبها. فأخبرها حين فتحت الباب أن أمرا طارئا حدث بالمشفى، تحول عقلها لبندول ساعة. لا يتوقف عن توقع أسباب لهذا الأمر الطارئ، سيطر عليها الخوف اتصال كهذا لا يبشر بخير فيما يخص جارها.

*****

هرولت إلى المشفى. كان جارها تم نقله إلى غرفة العناية المركزة، فقد الوعي فجأة. أصبح قلبه بحالة يرثى لها، اقترب موعد توقف قلبه للأبد.
جاهدت صابرين إلى أن استطاعت الحصول على إجازة من جديد، لم تكن بحالة تجعلها تستطيع معالجة المرضى، وهو يستحق أن تبقى بجانبه للنهاية.
كان حبيبها الراحل منهكا بشدة، يتحرك بصعوبة بوجة شاحب، وشفاه تحول لونها للون الأسود الغامق، لكنه لازال يبتسم طوال الوقت. تذكر أنه أيقظها ذات مرة قبيل الفجر، كانت نائمة مسندة الرأس على سريره،

ويعانق كفها كفه، فأيقظها، وبعينيه دموع تنتظر أمر الإفراج لتسقط على خديه، لامس خدها، حاولت أن يبتسم فانهارت عينيه باكية. فقال:
-لو كان العمر أطول. . كنت هحاول أسعدك.
قالها ثم تأوه من شدة ألمه.
بكت لبكائه بشدة، لينقضي خمسة عشر يومًا، تحسن خلالهم قليلًا، استطاع التحرك قليلًا. كانت تحاول منعه دائمًا من بذل مجهود، فتطالبه بالجلوس أو النوم، لكنه لم يخش الموت يومًا، كان حرا لا يعيقه مرض. كان يضحك ويمزح مع الجميع، لكنه يلتزم بالبقاء في الغرفة، وملازمة الفراش من أجل صابرين فحسب حتى لا يزداد قلقها.

*****

فكانت ليلة خالية، وكأن الهواء غادر الأرض، تسرب لقلبها برد غريب. شعرت بأن النهاية أوشكت على الوقوع، نظرت له بلهفة. اردت أن أمتع عيني برؤيته أكثر. وهو أيضًا نظر لي طوال اليوم. أسندته ليجلس وجلست بجواره لأستطيع منعه من السكوت فكان ذراعي ملفوفا حول ظهره، وأشتم رائحته، شعرت بونسه، دعوت الله جهرا، أن يطيل عمره. كاد قلبي أن يتوقف من شدة حزني، لم يكن هينا أن أنظر في وجهه للمرة الأخيرة، أن أستمع لآخر كلماته، فقال كأنه شعر بحالتي:
-الموت مش وحش الدنيا اللي وحشة. . متصعبيهاش أكتر ما هي صعبة.
تماسكت، لم أسمح لعيني أن تبكي. فقال لي بصوت متعب:
-نيميني.
فعلت ما أراد، نظر لي طويلًا، ثم قال بصوت متقطع يختلط بصوت أنفاسه:
-اتكلمي. قولي أي حاجة.

لم أكن أستطيع الحديث، لم تطاوعني الكلمات لأنطقها، ولكني فعلت ما أراد، حدثته عن حبي له عن أهميته، عن قلبي الذي كره البشر، وأغلق منافذ النور، فحول هو ظلام قلبي، إلى نور زاهٍ، أخبرته أنه لن يرحل، لن أحتمل العيش بدونه. ثم خذلني لساني، تحشرجت الكلمات داخله، أردت البكاء فحسب. تأملني بصمت، وقبيل الفجر، ودعني بنظرة حب، ثم أغمض جفنيه للأبد، نظرت طويلًا لجسده الساكن، لفمه الذي أطبق، لصوته الذي انقطع، انتظرت يوم آخر ليأتي أحد أقاربه ليحضروا دفنه وعزاءه فلم يأت أحد، ولم يحضر عزاءه غيري، وبعض زملائي في المشفى.

عرفت من محامٍ زار سكنه بعد وفاته بأسبوع، أن جاري العزيز لم يكن فقيرا، كان يملك أموالا طائلة، لكنه أنفقها جميعها ليعيش بحرية، ويفعل ما يحلو له، وآخر ممتلكاته قام ببيعها قبيل سفرنا للإسكندرية بأيام، أخبرني أنه ترك لي أثاث شقته، فلم أستطع رؤية شخص آخر يسكن شقته، ولن أستطيع. ثلاث سنوات كفيلة لإيقاف نبض الحياة بداخلي، يزداد حزني على فراقه كل دقيقة، جبال أحزاني لا بد لها من أكتاف صلبة، ولم تعد أكتافي تحتمل الصمود أكثر. لن أستطيع التخلي عن أشيائه، عن رائحته، عن كل ما أحب، فاقتنى، ثم أهداني.

(أمينة)

لو أن يحق لها أن تجعله يرافقها للمنزل ما ترددت أبدًا، ولكن لا يحق لها، مع مرور الوقت تتأكد من أنها لا تستطيع مفارقته. لو أنه يلمح على الأقل بأنه يهتم بشأنها، لكن بما ينطق، وهو لا يعرفها، ولا يعرف عنها سوى اسمها، وإذا أخبرها أنه يهواها، كيف ستحارب أباها؟

وصلت المنزل، دخلت غرفتها، وجدت مجموعة من الصناديق، فهرولت إلى آثار غاضبة:

-الصناديق اللي جوا دي بتاعة إيه؟

-دي حاجات من جهازك.

-أدخل أحرقهم وأحرقني؟؟

-أهدى. هنقلهم في أوضة علي.

قالت أمينة بأسى:

-هي دي المشكلة، ولا أنا كمان شوية كراكيب مضيقاكوا؟!

-قلت لك قبل كدا مش هسيبك تتجوزي واحد مش عاوزاه اصبري عليا بس.

لم تبالِ أمينة بكلام آثار، وعادت غرفتها، ناقمة على أبيها، وآثار، ووجودها، وقلبها الذي أحب آسر، لم تعد تنصت لكلمات آثار أو تصدق وعودها، تعلم أنها تريد لها الأفضل، لكنها سلبية. جل ما تقوم به أن تنطق بمجموعة من الوعود، ولن تفي بها يومًا.

مرت الساعات بطيئة، وجاءها اتصال من عمرو، فأجابت بفتور:

-ألو!
-ازيك يا حبيبي؟
-إيه حبيبك هو أنا راجل قدامك؟
-لا يا حبيب. حبيبتي. انتي ست البنات. انتي فين؟
-هكون فين. في البيت.
-في أوضتك؟
-أمممم.
-أكيد في سريرك. اسمحيلي أتخيلني معاكي دلوقتي. نايم جنبك، و. . .
قاطعته غاضبة:
-انت قليل الأدب!
ضحك طويلًا، ثم قال:
-كنت عارف إنك هتقولي كدا.
فقالت أمينة ببرود:
-انت عمرك غلطت مع بنت!
-ليه السؤال دا؟
-جاوب بصراحة بس.
-مرة زمان.
-مش مصدقاك.
قال مازحًا:
-ياه. شايفاني مؤدب؟
-لا. بس أكيد أكتر من مرة.
-ناصحة. أكتر اه بس مش كتير.

-ومخطبتش منهم ليه؟
-أخطب مين. انتي بتهزري. لما أجي أتجوز أتجوز واحدة أقفل عليها بابي وأنا مطمن.
ضحكت ساخرة، ثم أضافت:
-وانت عرفت منين إني محترمة، ما يمكن زيهم. وبعدين لو أنا ملاك طاهر، هتجوز واحد زيك ليه. شكلك انت اللي مش ناصح.
قالت كلماتها، ثم أنهت الاتصال، لم تمنحه فرصة ليعلق على كلماتها. اتصل عليها أكثر من عشرين مرة، ولم تجب. إذا كان لم يتركها حين أخبرته أنها لن تتزوجه، فلا بد من اتباع وسائل أخرى. فبذور الشك ستؤرقه، قد يستسلم سريعًا، ويقرر هو ألا تتم تلك الزيجة.

(آسر)

لم يخطئ عم أمين حين أخبره، أن حياتنا تشبه القهوة، اقترب موعد إجرائه العملية الجراحية من أجل معالجة ظهره، وقدمه. قد قرر أن يفتح مكتب هندسة جديد، وسيخصصه للإنشاءات، والمباني الخيرية، كالمشافي، ودور الأيتام، ودور المسنين إلى جانب المباني الهندسية المعتادة، حين شاهد أما تحمل رضيعها بالمشفى تذكر لو أن آية أنجبت طفلة، لعله كان قد يكون بنفس عمر ذاك الرضيع، فمساعدة الأيتام الصغار ستجعله يساعد آلاف الأطفال المعاقبين بما ارتكبه الآباء، والأمهات. يجب أن يهرب من إحساس الذنب، بخلق فرص جديدة تتيح للآخرين حياة أفضل، لعل الله منحه الحياة من جديد مرتين لأجل مساندة المعذبين، بتلك الحياة، لكنه إلى الآن لا يعرف ما يربطه بأمينة فتاة غريبة عنه، لم يجمعه بها ماضٍ، ودخلت حياته بشكل مفاجئ، فلمَ تشغل حيزا من تفكيره؟! لمَ قطع صمته منذ استعادة وعيه حين عرفاها. لن يفيدها فحالته يرثى لها، لكنه ينتظر زيارتها، يحب مرافقتها حيثما تريد، وكأن من وصفتنا بالخيانة لم تكذب، لم يمضِ على خسارتي آية سوى عام، وشهور قليلة، وأتعلق بأخرى.

في اليوم التالي زارته أمينة، كان يوم العملية قد حدد سيجريها، بعد أقل من عشرين يومًا، كان منعه الطبيب المتابع لحالته ألا يبذل مجهودا حتى لا يتضاعف الضرر، فلم يهتم. طلب من أمينة مرافقته ليرى القاهرة التي لم يرَ شوارعها منذ شهور قاسية، لازال يتذكر كل ما ارتكبه، لازال ضميره يعذبه، لكنه يريد التنفس من جديد، يريد صنع حياته الجديدة بإحكام، لعل الله

يغفر له ما سبق. ذهبت معه، لم يجد نفسه إلا أن رافقها للمقهى، الذي طالما جمعه بمَريم، ثم آية حين حاول تجريد قلبها من حبه، ارتبكت قليلًا حين أخذها لهذا المقهى، خشيت أن يراها عمرو، ثم تمنت أن يراها ليتركها. شاهد آسر تفاصيل لقاءاته التي طالما حدثت بهذا الكافيه، تصبب عرقًا حين تذكر كلماته لآية، لكنه قرر مواجهة الماضي، والتخلص منه بكل ما يحمله. فنادى النادل طلب قهوة له. فألغت هي الطلب، وطلبت كوبين من الأيس كريم. لم يناقشها، أحضر الجرسون كوبا به كرتي فانيليا مثلجة، وواحدة شوكولاتة، وكوب به كرتي شوكولاتة وواحدة فانيليا. حاول آسر إبعاد كرة الشوكولاتة ليتناول الفانيليا فأخذتها هي، وأعطته كرة الفانيليا خاصتها. تناولا الاثنان كوبيهما بتأنٍ شديد، لم تهدئ المثلجات من العاصفة المشتعلة بداخلهم، أنهيا جلستهم بالكافيه، ثم أخذها آسر إلى إحدى صالات عرض الأفلام، أراد مشاهدة تفاصيل جديدة خالية من حياته أن يعيش مواقف مختلفة كمشاهد، قررا مشاهدة فيلم رسوم متحركة، ضحكا كثيرًا طوال الفيلم، وقبيل نهايته، كان مشهد درامي مؤثر، فسالت دموع أمينة كنهر جارف، انفجرت بكت بشدة بكت بتألم، فصمت لم يعرف ما ينبغي فعله، انتابه شعور بالحزن تملك منه لحزنها الشديد، انتهى الفيلم وغادرا صالة العرض، كان قد قرر ألا يتركها إلا بعد أن تخبره سبب بكائها بهذا الشكل وما سبب حزنها الشديد.

(آثار)

دخلت آثار شقتها، كانت خالية، وضعت ما تحمل على الطاولة، ونظرت إلى غرفة أمينة لم تكن عادت من الخارج، أصابها القلق فزوجها أوشك على العودة، لا تفهم أين تذهب أمينة كل يوم، خمنت أنها تزور المريضة، وإذا كانت تزورها لمَ لا تخبرها وترفض اصطحابها معها؟ خافت أن تكون أمينة ترتب للرحيل كأخيها، انتهت من استراحتها، ثم دخلت غرفتها، وأمسكت كرسيا، ووضعته بجوار الخزانة ووقفت عليه، مدت يدها وأنزلت حقيبة ملابس قديمة، جلست على السرير، بعد أن أغلقت الباب بالمَفتاح، قامت بإحصاء المال التي أتت به من البنك منذ قليل، تملك خمسين ألف جنيه مصري، ثم وضعت النقود داخل كيس بلاستيكي، ثم وضعت الكيس داخل الحقيبة، وأعادت الحقيبة فوق الخزينة، سمعت طرق الباب فتأكدت من أنها لم تغفل شيئا، ثم فتحت الباب، كان عمرو هو الطارق، كان وجهه غير مفسر يظهر عليه الضيق. فقالت:

-ازيك يا عمرو؟

-أنا بخير. هي أمينة فين؟

-طب ادخل بس الأول.

تبعها للداخل، جلس على أريكة غرفة الجلوس. فقال ولايزال غاضبًا:

-ممكن حضرتك تنادي لأمينة؟

التفتت إليه بابتسامة خفيفة، لتخفي قلقها من غضبه.

-أمينة عند مروة صحبتها

-طب مروة بيتها فين؟
اتجهت آثار إلى المطبخ، وحدثته من الداخل:
-أنا مش عارفة العنوان بالظبط، قهوتك إيه؟
جاءها صوته، وهو في طريقه لمغادرة المنزل، فخرجت من المطبخ كان يفتح باب الشقة ليرحل.
-رايح فين؟
-همشي، وهجيلها بعدين. تكون رجعت
-يا ابني تعالى بس، هعملنا فنجانين قهوة حلوين، ادخل اقعد بس.
-معلش وقت تاني.
ثم خرج، فأغلقت الباب، ازداد قلقها لما قاله عمرو، لكنها ظنت أن أمينة عاملته بقسوة ليتركها.

(أمينة)

لم يكن المشهد يستدعي البكاء، لم تدرِ ما جعلها تبكي لهذا الحد، حين انتهى الفيلم، وقف آسر أمامها، خارج صالة العرض. ابتسم في وجهها، فبادلته الابتسامة. فسألها:

-إيه اللي مضايقك كدا؟

-مفيش. أنا زي الفل.

-لا. مش فل لا. قولي؟

-عايزني أقول؟

-اه، ومستني أسمعك.

قالت بتردد:

-مش أنا اللي اخترت.

رمقها باندهاش:

-اخترتي إيه!

مدت ذراعها داخل حقيبة يدها، وأخرجت محبس خطبتها، تبدلت ملامح آسر حين وقعت عيناه على المحبس. فقالت:

-بابا خطبني بالعافية لواحد اسمه عمرو، وأنا مش طايقاه، هيجوزهولي بالعافية.

ألجمت المفاجأة لسانه، فلم ينطق، فوضعت أمينة محبسها داخل إصبعها، انتظرت أن يأخذ آسر المحبس من يدها، ويطوحه بعيدًا، لكنه لم يفعل فلبست أمينة محبسها، وأوقفت سيارة أجرة وركبت السيارة.

كانت النهاية سريعة، لم تبدأ قصتهما بعد، ولكنها انتهت بالنسبه لأمينة، تأكدت من أنها لا تعني لآسر أكثر من زائرة مجهولة، راقبته بعينيها من مرآة السيارة، كان ثابتا لم يتحرك، ينظر تجاهها بذهول، تبعته بعينيه إلى أن أصبح بعيدا جدًا ثم تلاشى عن نظرها.

حين رأى المحبس شعر بأن سكينا حادا شق صدره، ذكرته بمريم، أمنحه الله النجاة من الموت لتعاد مآسي الماضي! حين ابتعدت السيارة وتلاشت أمينة عن نظره تأكد من أنه خسرها، اختلفت أمينة عن مريم، ولكنها صنعت نفس النهاية، شعر بنار أضرمت بأوصاله، ولكنه شاهدها تبتعد، لتختار وداعا سريعا.

*****

أمام عمارة أمينة كان عمرو بانتظارها داخل سيارته، ما إن رآها نزل من السيارة، وسحبها من يدها، لم يمنحها فرصة لتعترض، أركبها السيارة، وقاد السيارة بأقصى سرعة، لم ينطق، لكن بدا عليه الغضب الشديد، فالتزمت الصمت، تخشى أن يصدر عنه أزي. أمام عمارة أخرى، أبطل سيارته، وجذبها خارج السيارة حاولت منعه، ولكنه جذبها بقسوة شديدة، ونظر لها بحدة. قائلًا:

-الكلام اللي قولتيهولي امبارح حقيقي، ولا كدب؟

تعلم أنه أراد سماع الحقيقة، أنها تختلف عن الفتيات اللي عرفهم قبلها، ولكنها اختارت ألا تريحه. فقالت:

-اه. كل كلمة قولتها صح.

مد يده بعصبية شديدة كأنما سيصفعها، ثم سحبها بقوة، وقال وهو يصعد بها على المصعد. دون أن ينظر لها:

-كدب أو حقيقة هكمل بس يستحسن يكون كلامك غلط.
سيطر عليها الذعر، فتحولت لطفلة هشة، لم تحاول سحب ذراعها من بين أصابعه. صعد بها للدور الثالث.
وجدت لافتة معلقة على باب المدخل، كانت لطبيبة، لم تكن بكامل عقلها لتنتبه لتخصص الطبيبة. كان بداخل العيادة مجموعة من النساء، وعدد قليل من الرجال، وبعض النساء ببطون منتفخة. مرت لحظات، وسحبها مرة أخرى من يدها إلى داخل غرفة الفحص، تبادل عمرو السلامات مع الطبيبة. ثم نظرت الطبيبة لأمينة.
- حضرتك؟
فقال عمرو:
-أمينة.
ابتسمت الطبيبة بوجه أمينة، وطلبت منها التوجه لسرير الفحص. فرددت أمينة باندهاش:
-أنا مش تعبانة. مفيش حاجة وجعاني!
قالت الطبيبة:
-ما هو مش علشان انتي تعبانة، علشان يطمنوا عليكي.
-أنا مش فاهمة مين اللي يطمنوا، يطمنوا على إيه!
نظرة الطبيبة بريبة.
-دكتور عمرو ابن خالتك، وخايفين عليكي.
-انتي عبيطة!
سيطر الغضب على عقل أمينة، مدت يدها لتضرب الطبيبة، فوقعت عيناها على لافتة صغيرة بالغرفة كتب عليها طبيبة أمراض نسا، فتركت أمينة

الطبيبة، وسألتها:
-أنا هنا ليه؟
-هو عايز يتأكد انتي آنسة، ولا لا.
اقتربت أمينة من عمرو، وصفعته، وقالت:
-أنا أشرف منك، ومن اللي خلفوك.
ثم خلعت محبسها، وأطاحت به على بلاط الغرفة، وأسرعت للخارج.
حاولت أن تسيطر على انفعالها، لكنها كانت شديدة الغضب، شعرت بالإهانة، عادت لمنزلها مسرعة، فتحت لها آثار قائلة:
-كل دا تأخير يا أمينة!
لم تنطق أسرعت إلى غرفتها، وأغلقت الباب، وبدأت في بكاء طويل. أرادت الانفجار بوجه أبيها، لعله يشعر بما عانته بسببه، أهي رخيصة لهذا الحد أن يسحبها من يدها، ويقرر أن يأخذها لعيادة أمراض نسا! ما تلك الجرأة! هدأها قليلًا أنها رمت له بمحبسه، وصفعته لكنه يستحق ما هو أسوأ.

(صاحب العمارة)

طرق صاحب العمارة على باب شقة جار صابرين بقوة، لما يقرب من نصف ساعة، ولكن أحدا لم يجيب. فعاد لأسفل العمارة، لينتظر عودتها من دوامها بالمشفى ليحصل على مفاتيح الشقة، لن يمهلها أكثر، لو أن الشقة بحوزة مستأجر غير صابرين لكسر الباب، وألزمها على مغادرة الشقة، لكن صابرين تمتلك لسانا لاذعا، وإذا وجدت الشقة مفتوحة، لن تفعل ما يسر.

جلس على كرسي بجوار البقال، لم يكن هادئ البال، جعلت عقله يضطرب فحدث نفسه قائلًا:

-يعني إيجار متأخر، ولا دفعت ولا فضت الشقة!

فانتظرها متذمرا.

(آثار)

تحولت ابنتها من البريق، إلى الخسوف التام، خسرت ابنتها لم تعد أمينة تهتم بآثار، انتهزت آثار نوم زوجها وذهبت إلى عنوان الشقة التي ستعاينها، لتحدد أتستأجرها أم لا، ذهبت للعنوان، فقابلها صاحب العمارة قائلًا:

-معلش يا مدام. هنأجل الفرجة النهاردة، المستأجر القديم بيماطل، ومفضاش الشقة كلها، هديله حاجته النهاردة، وبكرة تشوفيها.

-ما أشوفها، وابقا أديله حاجته براحتك.

قال بأسلوب خبيث مؤثر:

-لا. دي حاجة ناس صحابها ياخدوها، وتتفرجي براحتك. الحق حق.

عادت آثار لمنزلها، وقد أصبحت تبغض العودة لهذا المنزل، لكن لابد لها من الانتظار لترتيب حياتها الجديدة.

(آسر)

بدأ الألم يزداد، يعلم أن رأسه تؤلمه بسبب التفكير المستمر، لكن لمَ يزداد ألم جسده، حين تركته أمينة أمام صالة العرض؟ لم يتحامل زاره ألم قاسٍ، يشعر بأن أحلامه الجديدة هدمت قبل أن يسعى لتحقيقها، لديه من الأعباء ما يجعله يهرب عن كل ما يزيد أعباءه، لكنه يحتاج لمساندته، لم يستطع يومًا العيش بمفرده، ولن يقوى على الوحدة بعد ما أصابه، كانت أمينة قشة ستنجيه، لكن لأنها قشة أغرقته، أمسك هاتفه أكثر من مرة ليحدثها، لكن لا يفعل، تملكته حالة تشبه الاكتئاب، والرفض.

(آثار)

لم تحاول التطفل على أمينة، تركتها تهدأ، أرادت إخبارها عن مسكنهم الجديد الذي تسعى لإيجاده، والحاضر المختلف، أرادت إخبارها أن الحياة لم تدفنهم بل ستمنحهم فرصة جديدة للتنفس، لكن زوجها أوقفها قبيل ذهابه للعمل قائلًا:

-علي هييجي كمان أسبوع علشان الفرح.

-ابني راجع.

قالتها بفرحة عارمة، لم يحملها جسدها من شدة سرورها، وليدها الغائب سيعود لتنعم بمعانقته طويلًا. فقال زوجها:

-هييجي قبل الفرح ويمشي بعديه على طول.

-يعني جاي للفرح؟ مش جاي يشوف أمه!

قال وهو يلمع حذاءه:

-لا يا أختي، هو فاضى ليكي!

قالها ثم، ذهب لعمله، اجتاحها الشوق فتمتم قلبها ليعاتب الغائب. قائلًا:

-إخص عليك يا علي جاي علشان الفرح بس، يبقا مش هتيجي تاني غير في دفنتي يا ابني. والجوازة اللي مش هتتم. أجوز أمينة علشان أشوف علي، ولا أبدأ أنا وأمينة بعيد، فماشوفهوش تاني.

لا بد أن يرجح العقل، المحاولة لانتهاء تلك الزيجة، لكنها أم، لديها قلب، وليس عقل، لديها شوق، ولوعة، ومرارة فراق، وحنين جارف لأبنائها. .

(صاحب العمارة)

بحث صاحب العمارة عن صابرين طويلًا، ذهب للمشفى فأخبره زملاؤها أنها لم تداوم منذ ما يقرب من أسبوع، طرق على شقتها، وشقة جارها كثيرًا، اشتاط غيظًا. راوده الشك بأنها اختفت لتجبره على الانتظار، حتى تستطيع جمع الإيجار المتأخر. قرر كسر الباب، ولتفعل صابرين ما أرادت، يمتلك عمارة، ولكن العائد لا يكفيه، يضطر كل شهر إلى العيش باقتصاد حتى تكفيه الأموال، زاد الأمر سواء انتقال ابنته الكبرى، وأطفالها للعيش معه، بعد ما انفصلت عن زوجها، ليزداد الحمل على كاهله، فرق الأيجار الذي سيناله حين يؤجر الشقة بالأسعار المرتفعة للتأجير سيحسن سبل عيشه هو وأسرته.

حاول كسر الباب عن طريق رمي جسده بقوة على الباب، فقالت امرأة تسكن بالطابق العلوي، قالت وهي صاعدة:

-استنى لما صابرين تيجي، البيوت ليها حرمتها!

قال ساخرًا منها:

-من حكم في ماله فما ظلم.

قالها ثم أكمل تدافعه لفتح الباب، لكن كبر سنه خذله.

(أمينة)

انتبهت لمحاولات آثار الحديث معها، لكن لم تتح لها الوقت لتخبرها، يبدو أن عمرًا لم يخبرهم شيئا مما حدث، ليرحل إلى الجحيم. خرجت من غرفتها كانت آثار جالسة يبدو عليها ثقل الهم، فلم تبالِ بوضع آثار يكفيها ما أصابها لمجرد أنها ابنة تلك الأسرة. اتجهت إلى المشفى، ووقفت أمام غرفة آسر، لم تجرؤ على طرق الباب، لم تستطع العودة لمنزلها. أرادت محادثته، تشعر معه أنها لا تحتاج للتكلف، لا تضع محاذير في التعامل معه. مرت دقائق، وهي حائرة، فإذا بآسر يأتي، كان ينتهي من إجراء بعض الفحوص من أجل عمليته الجراحية، بدا عليه الإرهاق والألم، تبدو عليه أعراض قلة النوم، شعرت بالثقل حين رأته، وهو خفق قلبه بشدة. اقترب منها، ثم أشاح بنظره بعيدًا، وأسند ظهره على الحائط، فاستندت هي الأخرى على الحائط على مسافة ما يقرب من متر من آسر، لم ينطق أي منهم، وبعد دقائق من الصمت، نطق بثقل:

-يوم جديد في المستشفى.

التفتت إليه لم يكن ينظر تجاهها، فقالت:

-يوم جديد شايل تفاصيل جديدة.

اعتلت فمه ابتسامة ساخرة. فقالت:

-وجع رجلك زاد؟

أحس بنبرتها القلق على وضعه، أراد معانقتها لتلتئم جروحه الغائرة. فنطق كمن يلعن وضعه:

-قربت أعمل العملية، ويروح الوجع.
قالها ثم اتجه بخطوات بطيئة نحو أقرب مقعد، فتبعته. وقالت:
-مش كل الوجع بيروح.
فقال هو:
-عم أمين كلمني، شافلي شقة كويسة، وهتوفرلي نص فلوسي.
فقالت:
-اتفرجت عليها؟
-مش هتفرق كلها حيطان.
جلست بجواره، لاحظ أنها لا تضع المحبس، فأشاح بنظره، وكأنه لم يلحظ.
فقال:
-عايز أعمل العملية قبل فرحك، علشان أحضره. ولا مش هتعزميني؟
قالت بصوت منهك:
-لا. مش هعزمك، علشان مفيش فرح أصلًا، أنا فسخت الخطوبة.
فرح، لكنه استطاع إخفاء فرحته، والتفت ناحيتها رمقها بعينيه، ولم ينطق في الفراغ، فأضافت:
-الحيوان خدني لدكتورعلشان. . .
تلعتشمت ثم قالت بغضب، وحياء:
-كان عايز يعرف إني. . محترمة ولا لا. .
هز رأسه بغضب، وقال:
-محترمة ازاي مش فاهم. . !
نظرت للأرض بحياء، وقالت:
-كان عايز. . يكشف عليا.

اشتاط غاضبًا، وأمسك ذراعه، فجذب انتباه بعض المرضى والأشخاص المارين بالمشفى.

-وازاي تقبلي؟

رفعت عينيها نظرت باكية، كطفلة تعاقب على ذنب لم ترتكبه:

-مكنتش أعرف.

قالتها ثم بكت بشدة، فتركها، ونظر بعيدًا، لكن غضبه لم يهدأ. بكت لدقائق مستمرة، ثم عانق كفه بكفها، وأخذها باتجاه الخروج من المشفى، كانت تمسح آثار البكاء من وجهها بيديها، حين احتضنت أصابعه أصابعها، شعر كأن عهدا قد قرأ في السماء على مطلعه من عقله وقلبه، لن يتخلى عنها، وبأنانية رجل عاهدها سرا ألا يترك غيره يلمسها، لن تحتضن أصابعها سوى أصابعه. قالت:

-احنا رايحين فين؟

التفت إليها كعاشق جديد أعلن عشقه منذ دقائق.

-هتتفرجي على الشقة، وتختاريها.

انتابتها رعشة خفيفة من معنى كلماته. خفق قلبها. أحبته بشدة، نبض قلبها للتو باسمه.

(آثار)

منذ أكثر من ساعة، وعمرو بالداخل مع زوجها، لم تفهم ما هذا الأمر الهام إلى هذا الحد، سمعت زوجها غاضبا منذ قليل، لكن يبدو الآن أنه سيطر على انفعاله، انتبها القلق مما يحدث بالداخل، وأن أمينة لم تعد إلى الآن. أعدت لهم كوبين من الشاي، ودخلت الغرفة، فصمت، لكن بدا على عمرو الخجل، جلست لترحب بعمرو، فأشار لها زوجها بعينيه أن تتركهما بمفردهما، ففعلت. خرجت، وقد ازداد فضولها. دق باب المنزل فأسرعت فتحت الباب وجدت أمينة مبتسمة، ومتوازنة فقالت:

-ازيك يا ماما يا حلوة انتي.

دخلت غرفتها، ثم عادت لآثار. داعبتها قائلة:

-إلا هما سموكي آثار ليه؟

فقالت آثار بصوت خفيض:

-عمرو جوا مع أبوكي، بقالهم ييجي ساعة ونص.

تبدل وجه أمينة، ودخلت غرفته وأغلقت الباب بعنف، بعد دقائق نادى زوجها على أمينة، فطرقت آثار على غرفة أمينة، وقالت:

-أبوكي بيقولك تعالي.

ذهبت أمينة لغرفة الجلوس، ظنت أن أباها ناداها ليسخر منه أمامها، ويطرده شر طردة. لم يبد على وجه عمرو القلق أو الضيق، رمقته باستهزاء قائلة:

-نعم يا بابا؟

قال عمرو:
-أنا. آسف.
التفتت إلى أبيها مندهشة:
-هو قالك كل حاجة يا بابا؟ قالك عمل إيه؟
-قال وأنا جبتلك حقك.
قال عمرو:
-أنا همشي وهاجي لما أمينة تهدا.
غادرهم عمرو، وأمينة لازالت لا تدرك ما يحدث حولها. نظرت لأبيها مصدومة.
- هو دا معناه إيه؟
-معناه إنه حس بغلطته وأنا جبتلك حقك منه، والموضوع خلص.
قالت بانفعال:
-انت عارف الموقف كان ازاي؟ بصة الدكتورة ليا، نظرات اللي في العيادة، ولا سفالته!
قالت كلماتها ثم دخلت غرفتها، لحقتها آثار سألتها عما حدث، فأخبرتها أمينة ما حدث. ثم واجهت زوجها. قالت بغيظ:
-انت ازاي تكمل الجوازة دي. ازاي؟!
-قال بنتك اللي قالت له إنها مش محترمة والواد دمه حامي ومجنون.
-وانت دمك بارد لما دا يحصل وتسيبه يتجوزها!
مد يده ليضربها لكنه لم يفعل فقالت بتحدٍ:
-اضرب، بس سيبه يتجوزها. عريس الغفلة. .
أخرج انفعاله في زفير ثم قال:

-لو عليا أقطم رقبته، بس لما الناس تعرف إن بنتك المصون خطيبها وداها لدكتورة أمراض نسا، مين هيرضى يتجوزها؟ هتقابلي الناس ازاي؟ وبعدين دي حتة عيلة بكرة تعيش زي اللي عايشين.

-بنتك ولا الناس؟

رمقته باشمئزاز أشاحت نظرها عنه، فغادر المنزل. وانتهى النقاش على هذا الوضع، أمينة تبكي قهرًا، وآثار لا تجد سبيلا للخلاص، وزوجها يهرب من المشاكل إلى الخارج كما اعتاد.

(صاحب العمارة)

رن هاتف صابرين فأجاب. كانت المتصلة أمينة حاولت أن تجد حلا لما تعانيه لدى صابرين، فأجاب هو قائلًا:

-السلام عليكم.

فقالت:

-وعليكم السلام. لوسمحت دا تليفون الممرضة صابرين؟

-اه.

-ممكن حضرتك تقولها إن أمينة عاوزاها ضروري

-صابرين ماتت من أسبوع.

لم يتلقَّ جوابا أو تعليقا ثم انقطع الاتصال، فجلس على أحد الكراسي ينظر للعاملين وهم يحملون قطع أثاث جديدة ويضعوها بشقة جار صابرين، حين لم يستطع كسر الباب جلب رجلان استطاعا كسره، فدخل الشقة كانت صابرين جالسة على أحد الكراسي بصالة الشقة، وبجوارها المسجل، وبعض الأوراق. كانت صابرين تحول لونها لبياض شديد الشحوب، تأثر قليلًا بحالها، وميتتها وحيدة بهذا الشكل، ثم قال:

-الله يرحمك يا صابرين. داويتي العيانين ونسيتي نفسك.

كانت هذه الكلمات آخر مظاهر حزنه على صابرين، ثم نادته التزاماته، فقام بتأجير شقة صابرين لآثار والدة أمينة، وأما شقة جار صابرين فقد اختار ما راقه من أثاثها، وتخلى عن البقية مقابل مبلغ زهيد من المال، رحلت كلمات جار صابرين، وحبه إلى الهواء، قد تكون بيعت لرجل يعمل

ببيع الفلافل الساخنة، فقد يكون الآن يقرأ الكلمات على الورق قبل أن يحولها لقرطاس، ويسب هذا المغفل الذي أعطى قيمة لامرأة. والشقة تم تأجيرها لمكتب محاماة. لتعيش الجدران مع آخرين، غير عابئين بآثار قلوب عبث بها الزمان فماتت حزنًا.

(آسر)

مر أسبوعان منذ آخر مرة زارتني بها أمينة. اتصلت بها كثيرًا، ولا تجيب. بأي ذنب يعاقبني الله بهذا الشكل، عدت للحياة فوجدتها، فجاهدت لأخلق عقلا خاليا من الماضي، فرحلت وتركتني في جحيم الحاضر بمستقبل مجهول.

تبقت على عمليتي ساعات قليلة، ولم تأت لأراها.

-هما سحبوا الروح منك علشان العملية، ولا انت بقيت كدا؟

قالها عم أمين حين وجده شارد، فالتفت بابتسامة.

-شكلي هبقا كدا على طول.

اعتدل عم امين، ونظر تجاه آسر جيدا.

-عارف الناس اللي بنقابلهم في المواصلات؟

نظر آسر لعم أمين باهتمام. فأضاف عم أمين:

-الناس دول بيركبوا، أوقات بنحكي مع بعض، وأوقات بنضحك، وممكن نفضل ساكتين، لو كانوا لذاذ بيحلولك يومك، ولو وحشين بيقفلولك يومك، وفي الآخر. مش كلهم بنفتكرهم، بس في ناس فيهم بنفضل فاكرينهم، ناس بتسيب علامة وتمشي، مش المفروض نفكر هما مكملوش على طول ليه. . .

حاول آسر الوقوف على قدميه فآلمته بشدة، فجلس وقال بمرارة:

-وإيه لازمتهم أدام كل واحد هيروح طريق.

-إن ربنا بيعوض، لو حتى باللي بنقابلهم صدفة، ونفترق في الآخر.

فهم مقصد عم أمين، الجيد في هذا الرجل أنه حين يريد إبداء رأيه في أمر ما

لا يتحول لمصلح اجتماعي، ويبدأ بالتنظير وإبداء النصائح والنواهي، ولكن ما يميز عم أمين أنه يبدي رأيه دون التحدث عن المشكلة. ولكنه يحتاج إلى سماع صوت أمينة.

(أمينة)

تمر أجسادنا بفترات انتهاك، فيعجز الجسد ويستسلم للمرض والضعف، أما الحب فينتهك كل ما تبقى من قلبنا وروحنا.
من يغوص في مرحلة انسحاب أعراض الإدمان يعجز جسده وينهك، أما من يعيش أعراض انسحاب حب، يهتز كيانه من أجل هذا الحب.
مر أسبوعان وأمينة كما هي للحظات حسدت صابرين على موتها، تمنت أن تموت. عاشت ما يشبه الاكتئاب تنام في غرفتها، لم تحدث أي شخص حتى آثار، حين يدق هاتفها برقم آسر، تشعر بأن آلة حادة تغرس بداخل القلل، فتنسحب منها الحياة، تبقت على زفافها ثلاث ليال، والعملية الجراحية التي سيخضع لها آسر اليوم، وضع أمامها فستان زفافها، جربت ارتداءه ولم تستطع كرهت رؤية هذا الفستان، وكرهت ارتداءه.
لم تدر سوى بقدميها وقلبها يسوقها إلى المشفى، وقفت أمام آسر كان يستعد لعمليته، ما إن رآها حتى أدار ظهره لها، وقال:
-جاية ليه؟
-علشان كان لازم آجي.
حاول أن يبدو منشغلا بمجموعة أدوية أمامه، ثم سألها بعتاب:
-ومشيتي ليه؟
وقفت أمامه نظرت له، كان آسر يجلس على السرير، فجلست هي على الأرض أمامه، نظرت له لم تر في جلستها بهذا الشكل أي إهانة، أرادت تتويجه كملك لقلبها، وترحل، تماسكت في البدء، ثم انفجرت في البكاء.

تقطعت كلماتها في بعض الأحيان. قالت:
-هيجوزهولي بعد تلات أيام، معرفتش أقولك. . مقدرتش أرد على اتصالاتك. . . أنا مش هعرف أتجوزه.
نظر لها بحزن، ثم تمشى في الغرفة، لم يكترث لألم قدمه المتزايد، اكترث لألم قلبه. بكاؤها المتزايد أضعف قوته، اقترب منها، وبنظرة ضعف خبأها طوال عمره، خلف قوة الرجال.
-متتجوزيهوش يا أمينة.
تقطعت أنفاسها من شدة الحزن، ثم تمالكت صوتها. قائلة:
-مش قادرة أمنعهم.
اشتد الألم بآسر، فجلس بجوارها بعد أن صاح دون قصد بتأوهات من شدة ألمه. نظرت له بلهفة. وقالت:
-أنا آسفة.
ابتسم لها بحنان:
-على إيه؟
-على وجعك.
ضحك بشدة إلى أن ظهرت بعض الدموع في عينيه من شدة الضحك، ثم أسند رأسه إلى الحائط. وقال:
-خدت على وجعي، بس مكنتش عايز أتوجع فيكي انتي كمان.
التفتت إليها ثم تحامل على قدمه ووقف، واتجه للنافذة في الغرفة.
-أنا عاجز زي ما انتي شايفة، بحب صوتك. بتقهر على عياطك، بفرح لما بتفرحي. أنا ظلمت اللي بحبهم، فاتردت لي فيكي
ثم نظر لها:

-تتجوزيني؟ هنبعد أنا وانتي عن كل حاجة. تتجوزيني يا أمينة؟
مرت دقائق، ولم يتلق منها جوابا. وآسر ينتظر جوابها، قطع ما بينهما طرق إحدى الممرضات على الباب. . ثم فتحت الباب وقالت:
-يلا علشان تجهز للعملية.
خرج آسر من الغرفة، وترك جرحه غائرا أمام عين أمينة، التي نطقت روحها متمنية منه أن ينتظر لتخبره أنها ستفعل أي شيء بعد سماع كلمة أحبك.

*****

بعد ساعات خرج من غرفة العمليات فاقدا الوعي، نظرت له جيدًا، واطمأنت أنه بحالة جيدة، حين جاء عم أمين اطمأنت على آسر برفقته. فانسحبت من المشفى.
حين وصلت المنزل شعرت بأن قلبها توقف عن النبض، ما إن دخلت من الباب ففدت الوعي، لضعف قلبها تملك منها داء الحمى. لازمت فراشها بحرارة لا تهدأ، وقلب عاصف، تبوح أحيانًا بكلمات غير مفهومة، لا تدري بما يحدث حولها.
فما بدر من أبيها إلا أن أجل موعد الزفاف. لكن لم يلغه.

(آسر)

لازم آسر الفراش لأسبوعين، فاطمأن الأطبة على صحته. أبلغ عم أمين أن يبيع شقته التي اشتراها له، ويرسل له بثمنها، قرر آسر السفر إلى الإسكندرية، ليعيش في ظل ما تبقى من عائلة أبيه، يكفيه ما عاناه في المحروسة.

مر الأسبوعان وأذاب قلبه ملح رحيلها، لم يستطع كرهها، ولو لحظة. وضع قلبه لها آلاف الأعذار ليجعل منها قديسة، رحلت مجبرة. تخلت عن حبها من أجل عائلتها.

(آثار)

حزنت بشدة لأجل مرض أمينة، كيف أهملتها إلى أن وصلت لتلك الحالة، أفعلت كل هذا من أجل علي الذي حين ضاقت به الحياة في مصر، هرب تاركا وراء ظهره أما تعذب على فراقه. حين بدأت حرارة أمينة في الانخفاض، تركتها، وذهبت لمسكنها الجديد التي لم تنتقل إليه بعد، ولم تخبر زوجها برغبتها في الانفصال، كانت الشقة مكونة من غرفتين، وصالة ودورة مياه، ومطبخ، دفعت إيجار شهرين مقدمًا، وطالبت صاحب العمارة أن يبحث لها عن محل صغير، لتبدأ عملها الخاص، لتستقر، وتغطي تكاليف العيش، فتركت أمينة، وذهبت سريعًا لتعاين المحل الذي وفره لها صاحب العمارة، أعجبها المحل، فمضت عقد تأجيره، وعادت مسرعة لأمينة. شغلها التفكير بنوع التجارة التي تنوي ممارستها. ازداد ضيقها من علي الذي لم يأت، ألغى سفرته حين علم بتأجيل حفل الزفاف لأجل غير مسمى، أليست صحة أخته أهم بكثير ليأتي لأجل الاطمئنان على وضعها.

*****

استعادت أمينة صحتها، ولكنها لم تستعد رونقها، دائمًا شاردة وتبكي، حاولت كثيرًا الخروج من المنزل، في البداية منعتها آثار، ولكنها لم تنفك من المحاولة، فتركتها آثار تحاول، لم يساندها جسدها المتعب، فكانت تسندها آثار إلى سريرها.

(آسر)

-انت هتسافر امتى؟

-كمان يومين يا عم أمين.

-بس انت محتاج راحة أكتر من أسبوعين.

-أنا عايز أرتاح بعيد عن هنا. عايز أبعد.

-مش هتاخد حد معاك؟

-هاخد شوية الهدوم.

-وأمينة؟

كائنه أذاب الجليد عن جرحه، فقال:

-يمكن أقابلها هناك صدفة، بعد سنين.

-اللي يريحك يا ابني.

ابتسم آسر في وجه عم أمين، ثم مد يده وسحب سيجارة من سجائر عم أمين، أشعلها، وظفر منها بنفس، فأصابه هيجان في صدره، شعر بشعور مقزز كأن صدره تحول إلى منبع للأدخنة، شعر بأن جوفه وطعم فمه تحول إلى هذا المذاق الغريب، فلم يعد الكرة، وأطفأ السيجارة. قائلًا:

-بتشربوها ازاي دي! دي وحشة أوي!

-واهمين نفسنا إنها بتفرج الهم، وهي بتزيد العلة.

فقال آسر مبتسمًا:

-والله ما هيوحشني غيرك.

-هجيلك، وهستناك تجيلي.

-هاجي طبعًا.
ثم قال مازحًا:
- كنت عايز آخد علبة سجاير معايا، بس حتى السجاير رفضاني.
-انت قولت لأمينة إنك مسافر.
-اه. بس هسافر لوحدي برضه.
تنهد آسر طويلًا، ثم نظر للفراغ أمامه مرة أخرى. ثم دخل غرفة المياه، فأمسك عم أمين هاتف آسر، وكتب رقم هاتف أمينة، ثم وضع الهاتف كما كان.

*****

انتهى اليوم سريعًا، ثم مر اليوم التالي، وضع آسر ثيابه بالحقيبة، ظهر أمامه طيفها، حاول المقاومة، ولكن بدأ عقله وقلبه في سرد الجرح القديم، وحين انتهى من ماضيه بدأ في سرد كل ما دار بينهم منذ لقائها، إلى رحيلها. أصبحت روحه خالية من كل شيء إلا منها، وكأن حبه لمَريم ثم آية، فتح جراح القلب والضمير، لكن رحيل أمينة جعله يشعر بأن حياته الجديدة غاب عنها ما كان سيصنع جمالها. يتبقى على سفره بضع ساعات، وأنفه لازالت تستنشق عطرها، وأثرها محفور على جلده المغطى بالثياب.

الاختيار

دائمًا ما نستطيع الاختيار

(آثار)

حين فارق أمينة المرض، اهتمت آثار بإطعام أمينة كافة الأطعمة المتوفرة بالمنزل عنوة، لكن أمومتها احترقت حين بكت أمينة بشدة أثناء طعامها، نظرت آثار لأمينة. قائلة:

-اسمه إيه يا أمينة؟

فهمت أمينة كلمات آثار، فلم تجب ابتسمت رغمًا عنها، مجرد التلميح عنه يسعدها. لم تصر آثار على معرفة حبيب أمينة المجهول. قالت فحسب:

-مسيري أعرف.

سمعت آثار طرق الباب، ففتحت كان عمرو هو الطارق، سمحت له بالدخول، وجلست بجوار رمقته بضيق. فسأل:

-هي أمينة كويسة؟

-أنا فاكرة كويس اللي عملته فيها.

حاول أن ينطق، فأشارت له أن يصمت. ثم اضافت:

-وعارفة إن عياها بسبب إنها مش عوزاك. . عايزها. حبتها محبتهاش. هي مش طايقة تبص في وشك حتى.

ثم دخلت غرفه أمينة، خلعت محبس الخطبة من إصبع أمينة، وعادت لعمرو. وضعت له المحبس في كفه. قال:

-طب أكلمها؟

-مش عوزة تكلمك. الموضوع خالص.

اتجه إلى الباب، وهو ينظر للمحبس، التفت ليحدث آثار، فأمسكت باب

الشقة بيدها، فغادر الشقة، وعلى وجهه أمارات الغضب.

*****

عاد زوج آثار إلى المنزل بوقت ليس بالطويل، بعد رحيل عمرو. حين رأته علمت أنه عرف ما حدث، فوقفت أمامه بثبات شديد. فقال:

-انتي شكلك اتجننتي! خلاص البيت مفيهوش راجل!

-تفتكر في راجل يقبل يجوز بنته لواحد زي عمرو!

-هتتجوزه يا آثار. ولو وقفتي في وشي تاني هطلقك!

حاولت استفزازه لينطق بحريتها.

-بعد سبعة وعشرين سنة، خدت بالي قريب إنك مش راجل.

-انتي اتجننتي بجد!

قالت بلا مبالاة:

-مجنونة. بس انت مش راجل. صوت بس. عيل بيعمل لنفسه قيمة بالخناق والضرب.

اشتاط غضبًا، فنطقها:

-انتي طالق.

نطق الطلاق، واتجه لخارج المنزل، فرحت بشدة. شعرت بحريتها، لكن وقع الكلمة مؤلم، تشعر بخيبة أمل، الطلاق يشعرك بأنك فشلت في خلق حياة سعيدة، لكن الفشل أفضل من التجرد من إنسانيتك وقلبك، أن يصبح عقلك لايخلو من الندم على هذا القرار الذي وجب تغييره. أرادت الهرولة إلى الشارع وأداء رقصة الحرية، دون الاهتمام بنظرات المارين، ستجعل روحها المعتوقة الآن جسدها يرقص بحرية شديدة، ستفوق جميع الراقصات، لأنها رقصة الحرية.

(أمينة)

رن هاتفها، ليعلن استلام رسالة جديدة، كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحًا، لازالت بعض آثار الحمى بجسدها، مصابة بالكسل، والإرهاق لازال وجهها شاحب قليلًا، شدت على جسدها وذهبت إلى دورة المياه، ثم عادت إلى السرير. فرحت لحصول آثار على الطلاق لم يعد أبوها من الأمس، ولكن مصيرها هي لم يحدد بعد، لكنها لا تريد سوى رؤية آسر. فتحت الرسالة.

((آسر هيسافر إسكندرية الساعة تسعة، مش هيرجع تاني))

نظرت على الساعة، كانت الثامنة والربع، كانت تلك الرسالة كفيلة لتهرول إلى المحطة، ولكن كيف ترحل في هذا الوقت، كيف ترحل وتترك آثار. ذهابها للمحطة يعني الرحيل.

(آسر)

وقفت حاملا حقيبتي في المحطة بانتظار القطار، للحظات حاكته نفسه الإمارة بإلا يركب القطار، بل يقف أمامه، ليرحل دون عودة، لكنه لن يجرؤ على فعل ذلك. لن يقوبوعلى مواجهة الموت مرة أخرى، ماذا سيخبر الله حين يقابله؟ أيضعف، ويحاول الانتحار، ليحاول الموت بهذا الجبن.
اشتم رائحة عشقه في الهواء، تمنى لو أن أمينة معه، أراد توديعها ببضع كلمات ليسمع صوت أنفاسها، أو تنهيدة مقترنة بأنغام صوتها الدافئ أو حتى صوت بكائها، ولكنه لن يجرؤ على توديع امرأة لرجل آخر.

*****

دقت الساعة التاسعة، فحمل حقيبته، منتظرا اقتراب القطار، فظهر من بعيد، ثم توقف بالمحطة، وبدأ الركاب في الصعود على متن القطار.
دقائق قليلة، وبدأ صفير القطار، ليعلن تحرك القطار للإسكندرية، محمل بركاب تركوا قلوبهم وأرحامهم بقاهرة المعز.
أسرعت أمينة إلى المحطة هرولت لتلحق القطار، لكن محاولتها دون جدوى، دائمًا ما كان القطار أسرع من أقدام العاشقين.

*****

جلست أمينة على أحد مقاعد المحطة، تنظر للقطار الذي بدأ في الاختفاء عن عينيها، ثم وقعت عيناها على شاب يحمل حقيبة، اقترب هذا الشاب

بخطوات بطيئة، وجلس بجوارها، رفعت عينيها لتنظر لهذا الشاب، فكان آسر. رمقها بابتسامة، ثم قال:

-حسيت إني هندم لو ركبت القطر، فروحت اشتريت جرنال,

ضحكت بشدة، وكلما زادت ضحكتها ازدادت أنوثتها، كانت رقيقة, حين انتهت من ضحكها، كانت وجنتيها قد اكتستا بالحمرة، فقالت:

-اتأخرت كنت بسيب لأمي جواب,,, السكك شبه البني آدمين,

فقال هو بغزل:

-مش مهم السكه المهم إنك موجودة,

تمت